

مختصر التمهيد

في

علوم القرآن

مختصر لتمهيد أستاذنا العلامة
آية الله الشيخ محمد هادي معرفة دام ظله
في علوم القرآن

تأليف: محمود الملكي الإصفهاني

مختصر التمهيد في

علوم القرآن

مُخْتَصَرُ تَمْهِيدِ أَسَاطِينِ الْعِلْمِ
آيَةُ اللَّهِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ هَادِي مَعْرِفَةِ (دَامَ ظِلُّهُ)
فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ

تَأَلَّفَ
مُحَمَّدُ الْمَلِكِيُّ الْإِصْفَهَانِي



مؤلف: محمود الملكي الاصفهاني

المطبعة / مطبعة قدس قم، هاتف ۷۷۳۱۳۵۲، فاكس ۷۷۴۱۷۹۸

الكمية / ٣٠٠٠ نسخة

السعر / ٢١٠٠ تومان

مكتبة قم / شارع ارم، مقابل فرع ٢٠، الرقم ٣٥٧

تلفون / ۹ - ۷۷۴۲۲۹۸ فکس / ۷۷۴۱۷۹۸ / تلفون انبار / ۲۹۱۰۱۷۷

مكتبة تهران / شارع انقلاب، ۱۲ فروردین، عمارة الناشرین للتجارة

الطابق الاول، الرقم، ١٦/١٨ تلفون: ٥٥٣٠٥ - ٩٧٣٨٠٩

حقوق الطبع محفوظة للناسخ

ISBN 964 - 5976 - 00 - 6 شابک ۶ - ۰۰ - ۵۹۷۶ - ۹۶۲ - ۶

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين
لا شك أن القرآن الكريم هو المحور الأساسي لجميع العلوم والمعارف
الإسلامية ولا سيما في أصول المعتقدات والتشريعات، وكان على الفقيه و
المتكلم أن يجعل القرآن نصب عينيه، في الاستنباط واستخراج المباني و
الأصول. الأمر الذي يعين فهم التفسير الصحيح للآيات القرآنية في جملة و
عبائره، مما يتوقف على تمهيدات ومقدمات تساعد على هذا الفهم و
الإدراك، ومن ثم اعتاد المفسرون أن يبدأوا بذكر أمور هي تمس مسألة
معرفة القرآن والوقوف على جوانبه المتنوعة، في مثل مسألة النزول و
السياق و تواتر القراءات ومسألة النسخ و وقوع التشابه في القرآن و
أسباب ذلك، مما عرف فيما بعد باسم «علوم القرآن» وعمد كثير من العلماء
إلى استقلال هذه المباحث وإفرادها بصورة علم برأسه، كالزركشي في
البرهان، والسيوطي في الإتقان، و سائر الكتب المدونة قديماً وحديثاً في
هذا الشأن. وكان من حسن الحظ أن علماء الشيعة الإمامية كان لهم قصب
السبق في هذا المضمار قديماً، و لكن الزمان حال بيننا وبين تلك الجهود

الضخمة، فكان حظنا من جهودهم في هذا العصر ضئيلاً أو بعيداً عن متناول الدارسين لشؤون القرآن الكريم. ومن ثم رأيت من الواجب أن أقوم بجمع آراء علمائنا المحققين فيما دونوه وكتبوه بشأن القرآن، ولم أزل أتبع وأستقصي الآراء والنظرات القديمة والحديثة في أكثر من ربع قرن، فكان محصول هذا الجهد المتواصل مباحث جمعت ضمن مسائل متنوعة تعني بشأن هذا الكتاب العزيز، وأسيتها تمهيدات (التمهيد في علوم القرآن) وخرج إلى الطبع والنشر لحد الآن ست مجلدات، والبقية على منصة التحقيق والتدوين وأسأله تعالى التوفيق في التتميم. وقد لخصتها في مجلدين باسم «تلخيص التمهيد» تسهيلاً لإمكان دراستها في المعاهد الدراسية، فجاءت نافعة سهلة التناول في أيدي الطلاب الأعزاء. غير أن هذا التلخيص أيضاً كان بحاجة إلى اختصار آخر، تسهيلاً على المبتدئين في دراسة شؤون القرآن، مما دعى بالأخ العزيز الفاضل الشيخ محمود الملكي الإصفهاني - وفقه الله تعالى لمرضاته - أن يقوم بهذا العمل الجليل، فجاء بمجوده موقفاً مسدداً، وجامعاً شاملاً لأمّهات المباحث التي أوردتها في التمهيد. وأسأله «مختصر التمهيد» وأسأل الله تعالى أن ينفع به كما نفع بأصله، وأن يوفق جامعته لخدمة الدين في خطوات أوسع وأشمل إن شاء الله تعالى. والله وليّ التوفيق وهو المسدّد للصواب.

قم - محمد هادي معرفة

٢٥ محرم الحرام ١٤١٨

ظاهرة الوحي

الوحي في اللغة:

الوحي - في اللغة - إعلام سريع خفي، سواء كان بإيحاء أو همسة أو كتابة في سر. قال تعالى عن زكريا عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾^(١) أي: أشار إليهم على سبيل الرمز والإيحاء.

ولعل الخفاء في مفهوم الوحي جاء من قبل اعتبار السرعة فيه، فالإيحاء السريعة تخفى - طبعاً - على غير المومني إليه.

الوحي في القرآن:

استعمله القرآن في معاني أربعة:

١ - معناه اللغوي: وهو إعلام سريع خفي. وقد مرَّ في آية مريم.

٢- أمر غريزي فطري: و هو أمر مجعول في ذات الأشياء، و مِنْهُ قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾^(١) فهي تسلك وفق فطرتها وتستوحي من باطن غريزتها، ولا تعدل عن تلك السبيل.

٣- إلهام نفسي: و هو شعور في الباطن، يحس به الإنسان إحساساً، يخفى عليه مصدره أحياناً، و أحياناً يلهم أنه من الله و قد يكون من غيره تعالى.

من الإلهام الرحمانى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٢)

والتعبير بالوحي عن وسواس الشيطان جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾^(٣)

والتعبير بالوحي عما يلقيه الله إلى الملائكة من أمره، جاء في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٤)

٤- الوحي الرسالي: استعمله القرآن في أكثر من سبعين موضعاً معبراً عن القرآن أيضاً بأنه وحي ألقى على النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ

١- النحل: ٦٨ و ٦٩.

٢- القصص: ٧.

٣- الأنعام: ١٢١.

٤- الأنفال: ١٢.

عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴿١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴿٢﴾

و الوحي الرسالي يتحقق على أنحاء ثلاثة كما جاءت في الآية الكريمة:
﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا
فِيُوحِي بِأُذُنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾. (٣)
الصورة الأولى: إلقاء في القلب.

الصورة الثانية: تكليم من وراء حجاب بخلق الصوت في الهواء بما
يقرعه مسامع النبي (٤) ولا يرى شخص المتكلم.
الصورة الثالثة: إرسال ملك الوحي فيبلغه إلى النبي، إما عياناً، أو
لا يراه و لكن يستمع إلى رسالته.

ملحوظة:

بما أن الوحي ظاهرة روحية فإنه بأي أقسامه إنما كان مهبطه قلبه
الشريف (شخصيته الباطنة: الروح) قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ (٥)

١- يوسف: ٣.

٢- الشورى: ٧.

٣- الشورى: ٥١.

٤- لكن لا بهذه الأذن المادية وإلا لسمعه الآخرون أيضاً بل بذلك السمع الذي يخص باطنه، قال تعالى:

﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾. البقرة: ٩٧.

٥- البقرة: ٩٧.

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾^(١)، والقلب هو لب الشيء و حقيقته الأصلية. قال سيدنا العلامة الطباطبائي رحمه الله: «هذا إشارة إلى كيفية تلقية الروح القرآن النازل عليه، وأن الذي كان يتلقاه من الروح [الأمين] هي نفسه الكريمة من غير مشاركة الحواس، الظاهرة التي هي أدوات لإدراكات جزئية خارجية... فكان صلى الله عليه وسلم يرى شخص الملك و يسمع صوت الوحي، لكن لا بهذه السمع والبصر الماديتين وإلا لكان أمراً مشتركاً بينه وبين غيره، ولم يكن يسمع أو يبصر هو دون غيره. فكان يأخذه بزحاء الوحي و هو بين الناس فيوحي إليه و لا يشعر الآخرون الحاضرون». ^(٢) نعم، ورد بشأن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، كان يرى ما يراه النبي صلى الله عليه وسلم و يسمع ما يسمعه إلا أنه ليس بنبي كما قال له الرسول صلى الله عليه وسلم. ^(٣)

أنحاء الوحي

بالنسبة إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

الوحي بالنسبة إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أقسام: تارة يأتيه في المنام، وأخرى وحياً مباشراً من جانب الله بلا توسط ملك. و ثالثة مع توسط جبرئيل عليه السلام:

١- الرؤيا الصادقة: كان أول ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصادقة،

١- الشعراء: ١٩٣-١٩٤.

٢- الميزان: ٣٤٦/١٥. بزحاء الوحي: شدة ألمه والإحساس بكَرْبِهِ.

٣- نهج البلاغة صبحي الصالح: ٣٠١ (الخطبة القاصعة).

كان ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. قال الإمام الباقر عليه السلام: «وأما النبي فهو الذي يرى في منامه، نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام ونحو ما كان رأى رسول الله ﷺ من أسباب النبوة قبل الوحي، حتى أتاه جبرائيل عليه السلام من عند الله بالرسالة»^(١).

قوله: «قبل الوحي» أى قبل الوحي الرّسالي المأمور بتبليغه. لأنّ هذا البيان تفسير لمفهوم «النبي» قبل أن يكون رسولاً، وهو إنسان أوحى إليه من غير أن يكون مأموراً بتبليغه. فهو يتّصل بالملا الأعلى اتصالاً روحياً، وينكشف له الملكوت كما حصل لنبيّنا ﷺ قبيل بعثته المباركة. ولكن لم يعهد نزول قرآن عليه في المنام، نعم ربّما كانت بعض رؤاه أسباباً لنزول القرآن كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ...﴾^(٢) فقد رأى النبي ﷺ ذلك عام الحديبية (سنة الست من الهجرة) و صدّقت عام الفتح (سنة الثمان من الهجرة).

٢ - نزول جبرائيل: كان الملك الذي ينزل على النبي ﷺ بالوحي هو جبرائيل عليه السلام، تارة يراه، إمّا في صورته الأصلية - وهذا حصل مرّتين - أو في صورة دحية بن خليفة الكلبي، وأخرى لا يراه. والمرّتان كانت إحداها في بدء الوحي بحراء. ظ - جبرائيل

١ - الكافي: ١/١٧٦، ح ٣. وبحار الأنوار: ١٨/٢٦٦، ح ٢٧.

٢ - الفتح: ٢٧.

صورته الأصلية التي خلقه الله عليها، ماثلاً أفق السماء من المشرق والمغرب، فتهيئه النبي ﷺ تهيئاً بالغاً، فنزل عليه جبرائيل في صورة آدميين فضمه إلى صدره، فكان لا ينزل عليه بعد ذلك إلا في صورة بشر جميل. والثانية كانت باستدعائه ﷺ أن يريه نفسه مرة أخرى صورته التي خلقه الله، فأراه صورته فسد الأفق. فقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾^(١) كانت المرة الأولى، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾^(٢) كانت المرة الثانية، على ما جاءت في الروايات.^(٣)

وكان جبرائيل عند ما يتمثل لرسول الله ﷺ يبدو في صورة دحية بن خليفة الكلبي، وهو كان أجمل إنسان في المدينة، وكان الصحابة يزعمون أن جبرائيل - حين يتمثل بشراً - هو دحية الكلبي حقيقة، ومن ثمّ نهاهم رسول الله ﷺ أن يدخلوا عليه إذا وجدوا دحية عنده.^(٤)

٣- الوحي المبشري: لعل أكثر موارد الوحي كان مباشرياً لا يتوسطه ملك، على ما جاء في وصف الصحابة حالته ﷺ، ساعة نزول الوحي عليه.

قال الشيخ الصدوق: «إن النبي ﷺ كان يكون بين أصحابه فيغمي عليه وهو يتصاب عرقاً فإذا أفاق قال: «قال الله كذا وكذا وأمركم بكذا وكذا»

١- النجم: ٧.

٢- النجم: ١٣.

٣- راجع: مجمع البيان: ج ٩ ص ١٧٣ و ١٧٥ وج ١٠ ص ٤٤٦، وتفسير الصافي: ج ٢ ص ٦١٨.

٤- بحار الأنوار: ٣/٣٢٦ عن كتاب حجة التفصيل لابن أثير.

نَهَاكُم عَنْ كَذَا». قَالَ: وَكَانَ يَزْعَمُ أَكْثَرُ مُخَالِفِينَا أَنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ نَزُولِ جِبْرَائِيلَ، فَسُئِلَ الْإِمَامُ الصَّادِقُ عليه السلام عَنِ الْغَشِيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَأْخُذُ النَّبِيَّ عليه السلام أَكَانَتْ عِنْدَ هَبُوطِ جِبْرَائِيلَ؟ فَقَالَ: «لَا. إِنَّ جِبْرَائِيلَ كَانَ إِذَا أَتَى النَّبِيَّ عليه السلام لَمْ يَدْخُلْ حَتَّى يَسْتَأْذِنَهُ، وَإِذَا دَخَلَ عَلَيْهِ قَعَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَعْدَةُ الْعَبْدِ، وَإِنَّمَا ذَاكَ عِنْدَ مُحَاظَبَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ إِيَّاهُ بِغَيْرِ تَرْجَمَانٍ وَوَاسِطَةٍ»^(١).

موقف النبي عليه السلام من الوحي

هنا موضوعان لهما أهمية كبيرة بشأن رسالة الأنبياء وصدق دعوتهم إلى الله، لا بدّ من البحث عنهما:

الأول: كيف عرف النبي عليه السلام أَنَّهُ مَبْعُوثٌ بِالرَّسَالَةِ؟ وَلِمَ لَا يَشْكُ فِي أَنَّ الَّذِي أَتَاهُ شَيْطَانٌ وَاطْمَأَنَّ أَنَّهُ جِبْرَائِيلُ؟

الثاني: هل يجوز على النبي عليه السلام أَنْ يَخْطَأَ فِيمَا يُوحَى إِلَيْهِ، فَيَلْتَبِسَ عَلَيْهِ تَخَيُّلاتٌ بَاطِلَةٌ فِي نَفْسِهِ لَتَبْدُو لَهُ بِصُورَةٍ وَحِيٍّ أَوْ يَلْقَى عَلَيْهِ إِبْلِيسُ مَا يَظُنُّهُ وَحِيًّا مِنَ اللَّهِ؟

أكثر أصحاب الحديث من العامة جعلوا النبي عليه السلام مرتاعاً في أوّل أمره خائفاً على نفسه من مسّ الجنون عائداً إلى إحضان زوجته الوفيّة لتستنجد هي إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل - وكان قارئاً للكتب - فيطمئنّه هو بأنّه نبيّ و يؤكّد عليه ذلك حتّى يطمئنّ ويستريح باله. كما أنّهم ذهبوا إلى استيلاء

الشیطان على النبي ﷺ، كما جاءت روايتهم لقصة الغرانيق. قالوا: حين نزلت سورة النجم وجعل النبي ﷺ يتلوها، وبلغ قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾^(١) ألقى عليه الشيطان: «تلك الغرانيق»^(٢) العلى وإن شفاعتهن لترنجن»، فحسبها وحياً فقرأها على ملاء من قريش ثم قرأ بقيّة السورة وأكملها، فسجد وسجد المسلمون والمشركون أيضاً، تقديرًا بما وافقهم محمد ﷺ في تعظيم آلهتهم ورجاء شفاعتهم، وانتشر هذا النبا حتى بلغ مهاجري حبشة فرجعوا إلى مكة فرحين، كما فرح النبي ﷺ بتحقيق أمنيته القديمة على ائتلاف قومه. فلما أمسى أتاه جبرائيل، فقال له: «اعرض عليّ السورة». فجعل النبي ﷺ يقرأها عليه حتى إذا بلغ الكلمتين قال له جبرائيل: «مه، من أين جئت بهاتين الكلمتين؟»، فتندّم رسول الله ﷺ... وقال: «إنّه أتاني آتٍ على صورتك فألقاها على لساني». فقال جبرائيل: «معاذ الله أن أكون أقرأتك هذا»^(٣).

لكن ذهب أئمة أهل البيت عليه في ذلك مذهباً نزيهاً وجعلوا النبي ﷺ أكرم على الله من أن يتركه إلى غير ذاته المقدسة ولا ينير عليه الدلائل الموضحة على نبوته في تلك الساعة الحرجة. كما لا يدع الشيطان أن يسلط على مشاعر نبيه الكريم. ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾^(٤).

١- النجم: ١٩ و ٢٠.

(٢) الغرانيق: جمع الغرنوق وهو الشاب الناعم الأبيض. وفي الأصل: اسم لطير الغاء وهو تشبيهه آلهة المشركين بظيور أبيض متحلقة في أجواء السماء كناية عن قربهم من الله تعالى.

٣- تفسير الطبري: ١٧/ ١٣١ - ١٣٤، الدر المنثور: ٤/ ١٩٤، فتح الباري: ٨/ ٣٣٣.

٤- الطور: ٤٨.

توضيح ذلك: يجب على الله - بمقتضى قاعدة اللطف - أن يقرن نبوته بدلائل نيرة لا مجال للشك فيها، وهذا الوجوب منبعث من مقام حكمته تعالى إذا كان يريد من عباده الانقياد وإلا كان نقضاً لغرضه من التكليف. ولهذا لا يدع مجالاً لتدليس أهل الزيغ والأهواء إلا ويفضحهم فوراً ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾^(١) «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»^(٢).

روى زرارة بن أعين قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «كيف لم يخف رسول الله ﷺ فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ممّا ينزع به الشيطان؟»، قال عليه السلام: «إن الله إذا اتخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار»^(٣) فكان الذي يأتيه من قبل الله مثل الذي يراه بعينه»^(٤).

أيضاً: أن النبي ﷺ لم يختره الله لنبوته إلا بعد أن أكمل عقله وأدبه فأحسن تأديبه وعرفه من أسرار ملكوت السماوات والأرض ما يستأهله للقيام بهذه المهمة الخطيرة. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ولقد قرن الله به من لدن أن كان فطياً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره»^(٥). وكان قبيل بعثته تظهر له علامات

١- الحاقة: ٤٤-٤٦.

٢- غافر: ١٥.

٣- أي: الطمأنينة والاعتدال الفكري.

٤- تفسير العياشي: ٢/١٠٦، ربحار الأنوار: ٢٦٢/١٨.

٥- نهج البلاغة: ٣٩٢/١، الخطبة القاسمة.

النبوة، فقد ظهرت آياتها قبل ثلاث سنوات من بعثته، فكان يرى الرؤيا الصادقة وكان يختلي بنفسه في غار حراء متفكراً في أسرار الملكوت، متعمقاً في ذات الله، متطلعاً سرّ الخليقة، حتى فجأه الحقّ وقد بلغ سنّ الأربعين.

على أنّه ﷺ كان أشرف الأنبياء وأفضل المرسلين وخاتم سفراء ربّ العالمين، فكان أكرم عليه تعالى من أن يتركه و نفسه.

ردّ قصّة ورقة بن نوفل:

قصّة ورقة بن نوفل المشتعلة على ارتياع النبي ﷺ، أسطورة خرافية حاكتها عقول ساذجة جاهلة بمقام أنبياء الله الكرام. أولاً: النبي ﷺ أكرم على الله من أن يروّعه في هذه الساعة التي هي نقطة عطف في حياة رسوله الكريم.

ثانياً: كيف فضّلوا عقل امرأة لا شأن لها بأسرار النبوات على عقل إنسان كامل كان قد بلغ القمّة التي استأهله لحمل الرسالة، ثمّ تقوم هي بتجربة يجهلها رسول ربّ العالمين، ليطمئنّ إلى قولها أو قول رجل كان شأنه أنّه كان قارئاً للكتب و ليس في ذلك الزمان كتب فيها حقائق و معارف غير محرّفة؟

ثالثاً: لو صحّت القصّة فلماذا لم يؤمن به ورقة بن نوفل، وقد علم أنّه نبيّ مبعوث؟ حيث إنّه مات و لم يؤمن بالنبي ﷺ مع أنّه عاش حتّى ظهرت دعوته ﷺ.

رد أسطورة الغرائق:

أسطورة الغرائق أسطورة مفتراة على النبي ﷺ، صنعتها القصاصون و نسبوها إلى بعض التابعين و من الصحابة إلى ابن عباس. و هي مردودة سنداً و دلالة.

أما من حيث السند:

- أولاً: إنَّ سندها لم يتَّصل إلى صحابي بل أسند إلى جماعة من التابعين و من لم يدرك حياة رسول الله ﷺ، فالحديث مرسل. و ابن عباس كانت ولادته في السنة الثالثة قبل الهجرة و لم يشهد القصة.

ثانياً: جلُّ أئمة الحديث شهدوا بكذب الخبر، كابن حجر و أحمد بن الحسين البيهقي و أبوبكر بن العربي و القاضي عياض و غيرهم.

ثالثاً: اتَّفَق المحققون من علماء الإسلام على أنَّه حديث مفترى و حكموا عليه بالكذب، لأنَّه قبل كلِّ شيء متناقض مع صريح القرآن الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(١).

قال الفخر الرازي: «...أما أهل التحقيق فيرونها باطلة موضوعة و

اجتمعوا عليها بوجوه من العقل والنقل»^(٢).

و قال العلامة الطباطبائي: «الأدلة القطعية على عصمة النبي ﷺ

تكذب متن الحديث - وإن فرضت صحة إسناده - فمن الواجب تنزيه

١- فصلت: ٤٢.

٢- التفسير الكبير ٢٣/٥٠.

جانب قدسيّة النبي ﷺ عن أمثال هذه الرذائل التي تمس كرامة الأنبياء». (١)
و أمّا من حيث الدلالة:

أولاً: تناقض القصة صريحاً مع كثير من نصوص القرآن، مثلاً: قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾، (٢) كناية عن أنّ أحداً لا يستطيع التّقول على الله تليساً للحقيقة إلّا ويهلكه الله فوراً. وقوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، (٣) ضمن سلامة القرآن من تلاعب أيدي المبطلين. وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، (٤) وقوله تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾، (٥) ضمناً سلامة عباد الله المكرمين من تسلّط الشيطان عليهم. على أنّ الشيطان لا سلطة له على أحد مطلقاً سوى وسوسته ودعوته إلى الشرور، ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾. (٦)

ثانياً: قامت الحجّة وأجمعت الأمّة على عصمة النبي ﷺ ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة. أ يقول النبي ﷺ ذلك من قبل نفسه عمداً، ذلك كفر، أو

١- الميزان ١٤/٤٢٥.

٢- الحاقة: ٤٤-٤٦.

٣- الحجر: ٩.

٤- النحل: ٩٩.

٥- الإسراء: ٦٥.

٦- إبراهيم: ٢٢.

سهواً و هو معصوم من هذا كله . و لولا العصمة في أداء الرسالة لزالَت الثقة بالدين . فلا سبيل لإبليس إلى شأن من شؤونهِ المعصمة بعصمة الله تعالى .

ثالثاً: تناقض القصة صريحاً مع آي السورة . قال تعالى في ابتداء سورة النجم: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ (١) . فلو صحَّ ما ذكره لكان تكذيباً لهذه الشهادة و تغليباً لجانب الشيطان على جانب الرحمان ، ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (٢) . ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٣) . و هل يتصور بشأن النبي ﷺ العارف بمواقع الكلام أن يلتبس عليه شأن كلام ساقط لا يتناسب مع سائر آيات السورة؟ كيف ينسجم ذلك مع قوله تعالى ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُهَا أَنْتُمْ و آبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ (٤) ؟ أم كيف يقنع المشركون - و هم أهل نقد و فصاحة - بتلك العمل المفضوح؟ و لا سيما مع قوله ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ (٥) ؟ أهمل يلتئم هذا الكلام التوحيدي مع أكذوبة «إِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتَرْتَجَىٰ»؟

رابعاً: سياق السورة لا يحتمل مسألة الغرائيق ، فإن سياقها ذمّ و تقرير

١- النجم: ١- ٥ .

٢- النساء: ٧٦ .

٣- المجادلة: ٢١ .

٤- النجم: ٢٣ .

٥- النجم: ٢٦ .

و لا ينسجم مع هكذا جملة. الأمر الذي لا يكاد يخفى على العرب آنذاك.
 خامساً: إنّ وصف آلهة قريش بالغرانيق لم يأت في نظم العرب و لا في خطبهم، و لا شيء من معنى الغرنوق يلائم معنى الآلهة التي وصفها العرب.
 سادساً: لو صحّت الحكاية، لشاعت و ذاعت و أخذها المشركون مستمسكاً في مقابل دعوة النبي ﷺ و لم يصدّقه في دعواه النسخ. مع أنّ التاريخ لم يضبط من تلك القصة المفتعلة سوى حكايتها عن أناس تأخروا عن ظرفها بزمان بعيد، و لم يسجّل التاريخ من يقول: «حَضَرْتُهَا». الأمر الذي يجعلنا قاطعين بكذبها و لعلّها من الإسرائيليات المفضوحة التي نسجتها أيدي الطاعنين بالإسلام في عهد انتشار المظالم على البلاد الإسلامية في ظلّ حكومة بني أميّة، أعداء الدين و القرآن.

و بقيت حجة قاطعة دالة على استحالة هذه القصة، فإنّه ﷺ في جميع حياته - منذ طفولته و صباه و شبابه - لم يجزّب الكذب قطّ، حتّى سمي الأمين.

أمّا قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ بُشِّنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾،^(١) فهي صريحة في أنّه ﷺ لم يفعل، بدليل لولا الامتناعية. فهي إن دلت، فإنّما تدلّ على أنّ مقام عصمته ﷺ - التي هي عناية من الله تعالى خاصّة بأوليائه المتجبين - هي التي تحول دائماً عند ارتكاب أيّة رذيلة، مهما كانت، صغيرة أو كبيرة.

الأسئلة

١. ما هو معنى الوحي لغة؟
٢. ما هي المعاني المذكورة للوحي في القرآن الكريم؟
٣. ما هو الوحي الغريزي الفطري؟ أذكر آية من القرآن جاء فيها الوحي بمعناه الغريزي.
٤. ما هو الإلهام النفسي، وما هو منشأه؟ أذكر مثلاً.
٥. ما هو الوحي الرسالي؟ أذكر آية من القرآن جاء فيها الوحي بمعناه الرسالي.
٦. أذكر أقسام الوحي الرسالي.
٧. ما هو رأي العلامة الطباطبائي في «مهبط الوحي القرآني»؟
٨. ما هي أنحاء الوحي بالنسبة إلى نبيّنا محمد ﷺ؟
٩. هل كان ينزل الوحي على النبي ﷺ قبل البعثة؟ كيف ذلك؟
١٠. ما الفرق بين الرسول والنبي؟
١١. هل نزل شيء من القرآن على النبي ﷺ في المنام؟
١٢. أذكر مورداً كان رؤيا النبي ﷺ سبباً لنزول القرآن.
١٣. من هو الملك الذي كان ينزل بالوحي على النبي ﷺ؟
١٤. كم مرةً وأين رأى النبي ﷺ جبرائيل بصورته الأصليّة؟
١٥. في أيّ صورة كان يظهر جبرائيل لرسول الله ﷺ؟

١٦. ما هو الوحي المباشر؟

١٧. بين حالات النبي ﷺ في الوحي المباشر.

١٨. كيف عرف النبي ﷺ أنه مبعوث بالرسالة؟ ولم لا يشك في أن الذي أتاه شيطان واطمأن أنه جبرائيل؟ اذكر القولين في ذلك.

١٩. هل يجوز على النبي ﷺ أن يخطأ فيما يوحى إليه، فيلتبس عليه تخيلات باطلة في نفسه لتبدو له بصورة وحي أو يلقي عليه إبليس ما يظنه وحيًا من الله؟ اذكر القولين في ذلك.

٢٠. بماذا استدلل القائلون بأن النبي ﷺ كان مرتاعاً في أول أمره؟ وكيف الجواب عن هذه المزعومة؟

٢١. بماذا استدلل القائلون بأن إبليس ألقى على النبي ﷺ كلمات زعم أنها قرآن؟ وكيف الجواب عن هذه المزعومة؟

نزول القرآن

بدء نزول الوحي:

بعث النبي ﷺ بالرسالة في السابع والعشرين من شهر رجب على ما جاء في روايات أهل البيت عليهم السلام. قال الإمام الرضا عليه السلام: «بعث الله - عزَّ و جلَّ - محمداً ﷺ رحمةً للعالمين، في سبع و عشرين من رجب، فمن صام ذلك اليوم كتب الله له صيام ستين شهراً»^(١).

وهكذا وردت روايات من طرق أهل السنة بتعيين نفس اليوم. روى البيهقي في شعب الإيمان عن سلمان الفارسي، قال: «في رجب يوم و ليلة، من صام ذلك اليوم و قام تلك الليلة كان كمن صام مائة سنة و قام مائة سنة، و هو لثلاث بقين من رجب، و فيه بعث الله محمداً ﷺ»^(٢).

١- الكافي: ١٤٩/٤.

٢- منتخب كنز العمال، بهامش المسند: ٣٦٢/٣.

بدء نزول القرآن:

لا شك أن القرآن نزل على رسول الله ﷺ في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك، لقوله تعالى: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ»^(١) و قوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ»^(٢). وقوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ»^(٣).

لكن كيف يلائم هذا مع القول بأن البعثة كانت في رجب ولا شك أن البعثة كانت مقرونة بنزول آي من القرآن.

فنقول: إن بدء البعثة يختلف عن بدء نزول القرآن بعنوان كتاب سماوي. لأنه ﷺ نبيء ولم يؤمر بالتبليغ العام إلا بعد ثلاث سنوات، كان خلالها يدعو في ^{هضاه} احتفاء حتى نزلت الآية: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ»^(٤) ومن هذا الحين جعل القرآن ينزل تدريجياً، بسمة كونه كتاباً أنزل من السماء.

وقد كان بدء نزول القرآن -بعد تلك الفترة- في ليلة القدر من شهر رمضان وبهذا الاعتبار صح التعبير بأن القرآن نزل في ليلة القدر، وإن كان نزوله تدريجياً استغرق عشرين عاماً. قال الإمام الصادق عليه السلام: «مكث رسول الله ﷺ بمكة بعد ما جاءه الوحي عن الله تبارك و تعالى ثلاث عشر

١- البقرة: ١٨٥.

٢- الدخان: ٣.

٣- القدر: ١.

٤- الحجر: ٩٤.

سنة، منها ثلاث سنين مختلفياً خائفاً لا يظهر أمره حتى أمره الله أن يصدع بما أمر به فأظهر حينئذٍ الدَّعوة^(١). وقال ﷺ أيضاً: «ثم نزل القرآن في طول عشرين عاماً»^(٢).

والنصوص على تحديد فترة نزول القرآن بعشرين عاماً كثيرة^(٣). وملاحظة هذه الروايات تعطينا أنَّ مبدأ نزول القرآن كان متأخراً عن البعثة بثلاث سنوات، إذ لا شكَّ أنَّ القرآن كان ينزل عليه ﷺ حتى عام وفاته، وبذلك يلتئم القول بأنَّ بدء نزول القرآن كان في شهر رمضان، ليلة القدر، كما نصَّ عليه القرآن الكريم.

أمَّا تأويل نزول القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان - مع العلم بأنَّ القرآن نزل منجماً طول عشرين أو ثلاثة وعشرين عاماً - فللعلماء في ذلك آراء وتأويلات:

١ - إنَّ بدء نزوله كان في ليلة القدر من شهر رمضان.

قال الفخر الرَّازي: «وذلك لأنَّ مبادئ الملل والدُّول هي التي تورَّخ بها، لكونها أشرف الأوقات ولأنَّها أيضاً أوقات مضبوطة معلومة»^(٤).
وهكذا فسَّر الزمخشري الآية بذلك، قال: «وابتدىء فيه إنزاله»^(٥).

١ - الغيبة للشيخ الطوسي: ٢١٧.

٢ - الأصول من الكافي: ٦٢٩/٢، تفسير العياشي: ٨٠/١.

٣ - راجع: الإبتقان: ٤٠/١، و تفسير شبر: ٣٥٠ عند تفسير آية ٣٢ من سورة الفرقان.

٤ - التفسير الكبير: ٨٥/٥.

٥ - الكشف: ٢٢٧/١.

و اختلاف مناسبات الآيات، حسب الظروف و الدواعي، أكبر دليل على اختلاف مواقع نزولها و أنه لم ينزل جملة واحدة و إلا لما كان موقع لقول المشركين: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، قال تعالى -رداً على هذا الاعتراض- ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾^(١).

٢ - كان ينزل على النبي ﷺ في كل ليلة قدر من كل عام ما كان يحتاج إليه الناس في تلك السنة من القرآن، ثم ينزله جبرائيل حسب مواقع الحاجة شيئاً فشيئاً بما يأمره الله تعالى. فيكون المقصود من شهر رمضان هو النوع، لا رمضان خاص. و هو احتمال الفخر الرازي أيضاً^(٢).

و يخالفه ظاهر قوله تعالى: ﴿أُنزِلَ فِيهِ﴾ أو ﴿أُنزِلْنَاهُ﴾ حكاية عن حدث سابق، فلو صح هذا القول لكان المناسب أن يقول: «نُزِّلُهُ» بصيغة المضارع، مضافاً إلى عدم وجود فائدة لنزول القرآن قبل الحاجة إليه. وسيأتي ما ينفع المقام عند البحث عن الرأي الخامس.

٣ - شهر رمضان الذي أنزل في شأنه القرآن، أي في فرض صيامه، كما يقال: «نزل في فلان أو في مناسبة كذا قرآن». والمراد من القرآن آية أو آيات منه^(٣).

لكن هذا الوجه يخص آية البقرة، و لا يجري في آيتي الدخان والقدر، كما لا يخفى. فضلاً عن أنه تأويل في اللفظ لا مبرر له و لا مستند.

١ - الفرقان: ٣٢.

٢ - التفسير الكبير: ٨٥/٥.

٣ - مجمع البيان: ٢٧٦/١ - الكشف: ٢٢٧/١.

٤ - إنَّ معظمه نزل في أشهر رمضان، و من ثمَّ صَحَّت نسبة الجميع إليه.

لكن لا دليل على أنَّ معظم آيات القرآن نزلت في أشهر رمضان و في ليلة القدر بالخصوص. و لعلَّ الواقعية تأبى هذا الاحتمال رأساً.

٥ - القرآن نزل جملة واحدة في ليلة واحدة إلى بيت العزّة^(١) أو البيت المعمور^(٢) ثمَّ نزل على رسول الله ﷺ طول عشرين أو ثلاثة و عشرين عاماً. ذهب إلى هذا القول جماعة من أرباب الحديث نظراً إلى ظاهر أحاديث رويت في ذلك.

قال الشيخ الصدوق رحمه الله: «نزل القرآن في شهر رمضان ليلة القدر جملة واحدة إلى البيت المعمور في السماء الرابعة ثمَّ نزل من البيت المعمور في مدّة عشرين سنة و إنَّ الله أعطى نبيّه العلم جملة واحدة ثمَّ قال له: ﴿و لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾»^(٣).

و قد جمع العلامة المجلسي رحمه الله بين الآيات و الروايات و قال: «يجمع بينها بأنَّ في ليلة القدر نزل القرآن جملة من اللّوح المحفوظ إلى السماء الرابعة (البيت المعمور) لينزل من السماء الرابعة إلى الأرض تدريجاً. و نزل في أوّل ليلة من شهر رمضان جملة القرآن على النبي ﷺ ليعلمه هو و لا يتلوه على الناس ثمَّ ابتدئ نزوله آية آية و سورة سورة في المبعث أو غيره ليتلوه

١ - كما جاء في روايات العامة.

٢ - كما جاء في روايات الخاصة.

٣ - طه: ١١٤، اعتقادات المجلسي: ١٠١.

على الناس». (١).

و روى الطبراني وغيره عن ابن عباس، قال: «أنزل القرآن ليلة القدر جملة واحدة إلى السماء الدنيا، ووضع في بيت العزة، ثم أنزل نجوماً على النبي ﷺ في عشرين سنة».

قال جلال الدين السيوطي: «هذا هو أصح الأقوال وأشهرها». (٢) و روي في ذلك روايات كثيرة. وقد أخذ الظاهريون من أصحاب الحديث بظاهر هذه الروايات مستريحين بأنفسهم إلى مدلولها الظاهري تعبداً محضاً. أما المحققون من العلماء فلم يرضهم الأخذ بما لا يمكن تعقله ولا مقتضي للتعبد بما لا يرجع إلى أصول العباديات، ومن ثم أخذوا ينقدون هذه الأحاديث نقداً علمياً، متسائلين: ما هي فائدة نزول القرآن جملة واحدة في إحدى السماوات العلى، ثم نزوله تدريجياً على رسول الله ﷺ؟ قال الفخر الرازي: «يحتمل أن يكون ذلك تسهيلاً على جبرائيل أو لمصلحة النبي ﷺ في توقع الوحي من أقرب الجهات». (٣)

و هذا الجواب غاية في الوهن مضافاً إلى أنه تخرّص بالغيب. و قال الفيض الكاشاني: «كأنه أريد بذلك نزول معناه على قلب النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾».

١- بحار الانوار: ١٨/٢٥٣، ٢٥٤.

٢- الإتيان: ١/٣٩ و ٤٠.

٣- التفسير الكبير: ٥/٨٥.

٤- الشعراء: ١٩٣.

ثم نزل طول عشرين سنة نجوماً من باطن قلبه إلى ظاهر لسانه كلما أتاه جبرائيل عليه السلام بالوحي وقرأه عليه بالفاظه»^(١).

فقد أول الله البيت المعمور إلى قلب رسول الله ﷺ و ربما أراد الصدوق عليه السلام أيضاً هذا المعنى من قوله «أعطى نبيّه العلم جملة واحدة». وهكذا وقع اختيار الشيخ أبي عبدالله الزنجاني في تأويل هذه الرواية^(٢).

و قد أخذ العلامة الطباطبائي عليه السلام هذا التأويل و زاد عليه تحقيقاً، قال: «إنّ الكتاب ذو حقيقة أخرى وراء ما نفهمه بالفهم العادي، و هي حقيقة ذات وحدة متماسكة لا تقبل تفصيلاً و لا تجزئة، لرجوعها إلى معنى واحد لا أجزاء فيه و لا فصول. و إنّما هذا التفصيل المشاهد في الكتاب طراً عليه بعد ذلك الإحكام، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُخْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^(٣). و قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(٤) و قال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾^(٥)... إذن فالمراد بإنزال القرآن في ليلة القدر، إنزال حقيقة الكتاب المتوحّدة إلى قلب رسول الله ﷺ دفعة، كما أنزل القرآن المفصّل في فواصل و ظروف على

١- تفسير الصافي: ٤٢/١، المقدمة التاسعة.

٢- تاريخ القرآن: ١٠.

٣- هود: ٢.

٤- الواقعة: ٧٧-٧٩.

٥- الأعراف: ٥٢.

قلبه ﷺ أيضاً تدريجاً في مدّة الدّعوة النّبويّة»^(١).

أقول: هذا كلام لطيف لكنّه غير مستند إلى دليل، والمسألة قبل كلّ شيء نظريّة وليست بالعقليّة النظرية.

قال الشيخ المفيد: «الذي ذهب إليه أبو جعفر (الصدوق ﷺ) في هذا الباب، أصله حديث واحد - أي ليس من المتواتر المقطوع به - لا يوجب علماً ولا عملاً. ونزول القرآن على الأسباب الحادثة حالاً فحالاً يدلّ على خلاف ما تضمّنه هذا الحديث. وذلك أنّ القرآن قد تضمّن حكم ما حدث وذكر ما جرى على وجهه، وذلك لا يكون على الحقيقة إلّا لوقت حدوثه عند السّبب... مثلاً: قوله تعالى: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا»^(٢)، نزل بشأن خولة بنت خويلد جاءت تشتكي زوجها أوس بن الصّامت الذي كان قد ظاهرها، و كان ذلك طلاقاً في الجاهليّة^(٣)... وكثير في القرآن لفظ «قالوا» و «جاؤوا» و «جاء» - بلفظ الماضي - كما أنّ فيه ناسخاً و منسوخاً... كلّ ذلك لا يتناسب مع نزوله جملة واحدة في وقت لم يحدث شيء من ذلك»^(٤).

و القرآن نفسه دلّ على ذلك أيضاً، قال تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

١- الميزان: ١٥/٢ و ١٦.

٢- المجادلة: ١.

٣- مجمع البيان: ٢٤٦/٩.

٤- شرح عقائد الصدوق (تصحيح الاعتقاد): ٥٨.

لَوْ لَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً^(١). و لو كان أنزل جملة واحدة لقليل في جوابهم: «قد أنزل على ما اقتَرَحْتُمْ». و لا يكون الجواب كذلك بل قال: «كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا^(٢)». و فسر المفسرون كلهم ذلك بأن قالوا: «المعنى إنا أنزلناه كذلك - أي: متفرقاً - ليستمهل على إسماعه و يتدرج إلى تلقّيه». و الترتيل أيضاً إنما هو ورود الشيء في إثر شيء.

وكان ﷺ في أوائل نزول الملك عليه بالوحي، يخشى أن يفوته اللفظ و من ثمّ كان يحرك لسانه و شفّيته ليستذكره و لا ينساه و كان يتابع جبرائيل في كل حرف يلقيه عليه، فنهاه تعالى عن ذلك و وعده بالحفظ و الرعاية من جانبه تعالى، قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ^(٣). و ربّما كان ﷺ يقرأ على أصحابه فور قراءة جبرائيل عليه، و قبل أن يستكمل الوحي أو تنتهي الآيات النازلة حرصاً على ضبطه و تثبته، فنهاه تعالى أيضاً و قال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾^(٤)، فصار عليه تعالى بالحفظ و الرعاية الكاملة. فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبرائيل استمع له فإذا انطلق قرأه كما أقره، قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾^(٥).

١- الفرقان: ٣٢.

٢- الفرقان: ٣٢.

٣- القيامة: ١٦- ١٩.

٤- طه: ١١٤.

٥- الأعلى: ٦١.

أول ما نزل:

ما هي أول آية أو سورة نزلت من القرآن؟
الأقوال في ذلك ثلاثة:

١- سورة العلق: في تفسير الإمام العسكري عليه السلام: «هبط إليه جبرائيل وأخذ بضبعه وهزّه، فقال: يا محمد! اقرأ، قال: و ما أقرأ؟ قال: يا محمد! ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾»^(١).

٢- سورة المدثر: روي عن ابن سلمة، قال: «سألت جابر بن عبد الله الأنصاري: أي القرآن أنزل قبل؟ قال: يا أيها المدثر. قلت: أو اقرأ باسم ربك؟ قال: أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ: إني جاورت بحراء، فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت الوادي، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وشالي - ولعله سمع هاتفاً - ثم نظرت إلى السماء فإذا هو - يعني جبرائيل - فأخذتني رجفة، فأتيت خديجة، فأمرتهم فدثروني، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾»^(٢).

ولعل جابراً اجتهد من نفسه أنها أول سورة نزلت، إذ ليس في كلام رسول الله ﷺ دلالة على ذلك والأرجح أن ما ذكره جابر كان بعد فترة انقطاع الوحي فظنه جابر بدء الوحي^(٣). حيث روى جابر حديث فترة

١- العلق: ١-٥. راجع: بحار الأنوار: ٢٠٦/١٨ و تفسير البرهان: ٤٧٨/٢.

٢- صحيح مسلم: ١/٩٩.

٣- راجع: البرهان: ٢٠٦/١.

انقطاع الوحي أيضاً، قال: «سمعت رسول الله ﷺ يحدث عن فترة انقطاع الوحي، قال: فبينما أنا أمشي إذ سمعت هاتفاً من السماء، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالساً على كرسي بين السماء والأرض، فجلست منه فرقاً - أي فرغت - فرجعت، فقلت: زملوني زملوني فذرّوني، فأنزل الله تبارك و تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ - وهي الأوثان - قال ﷺ: ثم تتابع الوحي». (١)

٣ - سورة الفاتحة: قال الزمخشري: «أكثر المفسرين على أنّ الفاتحة أول ما نزل». (٢)

و روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «سألت النبي ﷺ عن ثواب القرآن، فأخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء فأول ما نزل عليه بمكة: فاتحة الكتاب، ثم: اقرأ باسم ربك، ثم: ن والقلم...». (٣) ولا شك أنّ النبي ﷺ كان يصلي منذ بعثته، وكان يصلي معه عليّ و جعفر و زيد بن حارثة و خديجة (٤) و «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» (٥) فقد ورد في الأثر: أول ما بدأ به جبرائيل أن علّمه الوضوء

١ - صحيح مسلم: ٩٨/١.

٢ - الكشف: ٧٧٥/٤.

٣ - مجمع البيان: ٤٠٥/١٠.

٤ - تفسير علي بن ابراهيم القمي: ٣٥٣.

٥ - مستدرک الحاكم: ٢٣٨/١ - ٢٣٩.

والصلاة،^(١) فلا بدّ أن سورة الفاتحة كانت مقرونة بالبعثة.

الجمع بين الأقوال: نحن لا نرى تنافياً جوهرياً بين الأقوال الثلاثة لأن الآيات الثلاثة أو الخمسة من أول سورة العلق إنما نزلت تبشيراً بنبوته ﷺ و هذا إجماع أهل الملة. ثم بعد فترة جاءته آيات - أيضاً - من أول سورة المدثر كما جاء في حديث جابر ثانياً.

أما سورة الفاتحة فهي أول سورة نزلت بصورة كاملة و بسمة كونها سورة من القرآن كتاباً سماوياً للمسلمين. و من هنا صحّ التعبير عن سورة الحمد بسورة الفاتحة، أي: أول سورة كاملة نزلت بهذه السمة الخاصة. إذ ليس المراد من الفاتحة أنها كتبت في بدء المصاحف لأنّ هذا الترتيب شيء حصل بعد وفاة النبي ﷺ أو لا أقلّ في عهد متأخر من حياته - فرضاً - في حين أنها كانت تسمّى بفاتحة الكتاب منذ بداية نزولها كما يشير إليه قوله ﷺ: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»^(٢).

آخر ما نزل:

ما هي آخر آية أو سورة نزلت من القرآن؟

الأقوال في ذلك أربعة:

١- سورة النصر: روي عن الصادق عليه السلام: «و آخر سورة نزلت ﴿إِذَا جَاءَ

١- سيرة ابن هشام: ١/ ٢٦٠ - ٢٦١. وبحار الأنوار: ١٨/ ١٨٤، ح ١٤ و ص ١٩٤، ح ٣٠.

٢- صحيح مسلم: ٩/ ٢.

نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ»^(١).

٢- سورة براءة: روي أنها آخر سورة نزلت. نزلت في السنة التاسعة بعد عام الفتح عند مرجعه ﷺ من غزوة تبوك، نزلت آيات من أولها فبعث بها النبي مع عليّ ﷺ ليقرأها على ملأ من المشركين.^(٢)

٣- آية (وَاتَّقُوا يَوْمًا...) : روي أن آخر آية نزلت هي آية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. نزل بها جبرئيل، و قال: «ضعها في رأس المأتين والثمانين من سورة البقرة». وعاش الرسول ﷺ أحداً وعشرين يوماً، وقيل: سبعة أيام.^(٣)

٤- آية إكمال الدين: روي أن آخر آية نزلت هي آية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.^(٤)

قال اليعقوبي: «كان نزولها يوم النص على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (صلوات الله عليه) بغدير خم».^(٥)

الجمع بين الأقوال: لا شك أن سورة النصر نزلت قبل براءة لأنها كانت بشارة بالفتح أو بمكة عام الفتح^(٦) و براءة نزلت بعد الفتح بسنة.

١- تفسير البرهان: ٢٩/١.

٢- تفسير البرهان: ٦٨٠/١.

٣- تفسير شبر: ٨٣.

٤- المائدة: ٣.

٥- تاريخ اليعقوبي: ٣٥/٢.

٦- أسباب النزول بهامش الجلالين: ١٦٥/٢.

فطريق الجمع بين هذه الروايات: أن آخر سورة نزلت كاملة هي سورة النصر، فقال ﷺ: أما إن نفسي نعت إليّ. و آخر سورة نزلت باعتبار مفتحتها هي سورة براءة. و أما آية ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...﴾ فإن صحَّ أنها نزلت بمنى يوم النحر في حجة الوداع - كما جاء في رواية الماوردي^(١) - فأخر آية نزلت هي آية الإكمال - كما ذكرها اليعقوبي - لأنها نزلت في مرجعه ﷺ من حجة الوداع ثامن عشر ذي الحجة. و إلا فلو صحَّ أن النبي ﷺ عاش بعد آية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...﴾ أحدًا وعشرين يوماً أو سبعة أو تسعة أيام، فهذه هي آخر آية نزلت عليه ﷺ.

والأرجح ما ذهب إليه اليعقوبي، نظراً إلى أنها آية الإعلام بكمال الدين، فكانت إنذاراً بانتهاء الوحي عليه ﷺ بالبلاغ والأداء. فلعل تلك الآية كانت آخر آيات الأحكام، وهذه آخر آيات الوحي إطلاقاً.

المكي والمدني

لمعرفة المكي والمدني فائدة كبيرة ترتبط مع أسباب النزول وتمدّد المفسّر والفقهاء في تعيين اتجاه الآية و في مجال معرفة الناسخ من المنسوخ، والخاص من العام، والقيد من الإطلاق، و ما أشبه.

و في تعيين المكي والمدني ثلاث نظريات:

الأولى: ما نزل قبل الهجرة أو في أثناء الطريق قبل وصوله ﷺ إلى المدينة فهو مكِّي وما نزل بعد ذلك ولو في غير المدينة حتى لو نزل في مكة عام الفتح أو في حجة الوداع فهو مدنيّ.

الثانية: ما نزل بمكة وحواليها - ولو بعد الهجرة - فهو مكِّي، وما نزل بالمدينة وحواليها فهو مدنيّ وما نزل خارجاً عنها فهو لا مكِّي ولا مدنيّ.

الثالثة: كلّ شيء نزل فيه «يا أيّها الناس» فهو بمكة وكلّ شيء نزل فيه «يا أيّها الذين آمنوا» فهو بالمدينة. ^(١) قال الزركشي: «لأنّ الغالب على أهل مكة الكفر، والغالب على أهل مدينة الإيمان». ^(٢)

والمشهور الذي جرى عليه أكثر أهل القلم هو الاصطلاح الأوّل. ^(٣) وكان التحديد الآتي في نظم السور حسب ترتيب نزولها معتمداً على هذا الاصطلاح.

ترتيب نزول السور

اعتمدنا في هذا العرض على عدّة روايات متّفق عليها وثق بها أكثر العلماء، وعمدتها رواية ابن عباس بطرق وأسانيد اعترف بها أئمة الفن. ^(٤)

١- مستدرک الحاكم: ١٨/٣. وهذا ما قاله ابن مسعود.

٢- البرهان: ١٨٧/١.

٣- البرهان: ج ١، ص ١٨٧، الإتيان: ج ١، ص ٩.

٤- راجع: مجمع البيان: ٤٠٥/١٠ - ٤٠٦، الإتيان: ١٠/١ - ١١ و ٢٥.

والنظر في هذا العرض كان إلى مفتتح السّور، فالسورة إذا نزلت من أولها بضع آيات، ثمّ نزلت أخرى، وبعدها اكتملت الأولى، كانت الأولى متقدّمة على الثانية في ترتيب النزول، حسب هذا الاصطلاح. لكن هذا التحديد لم يكن متفقاً عليه عند الجميع.

وإليك قائمة السّور المكيّة، وعددها: ستّ وثمانون سورة، متقدمة على السّور المدنيّة، وعددها: ثمان و عشرون سورة. مع غضّ النظر عن سور مختلف فيها.

السور المكية (٨٦)

ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف	ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف
١	العلق	٩٦	٢٣	النجم	٥٣
٢	القلم	٦٨	٢٤	عبس	٨٠
٣	المزمل	٧٣	٢٥	القدر	٩٧
٤	المدثر	٧٤	٢٦	الشمس	٩١
٥	الفاتحة ^(١)	١	٢٧	البروج	٨٥
٦	المسد	١١١	٢٨	التين	٩٥
٧	التكوير	٨١	٢٩	قريش	١٠٦
٨	الأعلى	٨٧	٣٠	القارعة	١٠١
٩	الليل	٩٢	٣١	القيامة	٧٥
١٠	الفجر	٨٩	٣٢	الهمزة	١٠٤
١١	الضحى	٩٣	٣٣	المرسلات	٧٧
١٢	الشرح	٩٤	٣٤	ق	٥٠
١٣	العصر	١٠٣	٣٥	البلد	٩٠
١٤	العاديات	١٠٠	٣٦	الطارق	٨٦
١٥	الكوثر	١٠٨	٣٧	القمر	٥٤
١٦	التكاثر	١٠٢	٣٨	ص	٣٨
١٧	الماعون	١٠٧	٣٩	الأعراف	٧
١٨	الكافرون	١٠٩	٤٠	الجنّ	٧٢
١٩	الفيل	١٠٥	٤١	يسّ	٣٦
٢٠	الفلق	١١٣			
٢١	الناس	١١٤			
٢٢	التوحيد	١١٢			

١- سقطت الفاتحة من رواية ابن عباس .

فأثبتناها على رواية جابر بن زيد : الإتيان :

ج ١ ص ٢٥ و على نصّ تاريخ يعقوبي :

ج ٢ ص ٢٦ .

ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف	ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف
٤٢	الفرقان	٢٥	٦٦	الأحقاف	٤٦
٤٣	فاطر	٣٥	٦٧	الذاريات	٥١
٤٤	مريم	١٩	٦٨	الغاشية	٨٨
٤٥	طه	٢٠	٦٩	الكهف	١٨
٤٦	الواقعة	٥٦	٧٠	النحل	١٦
٤٧	الشعراء	٢٦	٧١	نوح	٧١
٤٨	النمل	٢٧	٧٢	إبراهيم	١٤
٤٩	القصص	٢٨	٧٣	الأنبياء	٢١
٥٠	الإسراء	١٧	٧٤	المؤمنون	٢٣
٥١	يونس	١٠	٧٥	السجدة	٣٢
٥٢	هود	١١	٧٦	الطور	٥٢
٥٣	يوسف	١٢	٧٧	الملك	٦٧
٥٤	الحجر	١٥	٧٨	الحاقة	٦٩
٥٥	الأنعام	٦	٧٩	المعارج	٧٠
٥٦	الصافات	٣٧	٨٠	النبأ	٧٨
٥٧	لقمان	٣١	٨١	النازعات	٧٩
٥٨	سبا	٣٤	٨٢	الانفطار	٨٢
٥٩	الزمر	٣٩	٨٣	الانشقاق	٨٤
٦٠	خانفر	٤٠	٨٤	الروم	٣٠
٦١	فصلت	٤١	٨٥	العنكبوت	٢٩
٦٢	الشورى	٤٢	٨٦	المطففين	٨٣
٦٣	الزخرف	٤٣			
٦٤	الدخان	٤٤			
٦٥	الجاثية	٤٥			

السور المدنية (٢٨)

ترتيب المصحف	السورة	ترتيب النزول	ترتيب المصحف	السورة	ترتيب النزول
٦٢	الجمعة	١٠٩	٢	البقرة	٨٧
٦٤	التغابن	١١٠	٨	الأنفال	٨٨
٦١	الصف ^(١)	١١١	٣	آل عمران	٨٩
٤٨	الفتح	١١٢	٣٣	الأحزاب	٩٠
٥	المائدة ^(٢)	١١٣	٦٠	المتحنة	٩١
٩	براءة	١١٤	٤	النساء	٩٢
			٩٩	الزّلزال	٩٣
			٥٧	الحديد	٩٤
			٤٧	محمّد	٩٥
			١٣	الرعد	٩٦
			٥٥	الرحمن	٩٧
			٧٦	الإنسان	٩٨
			٦٥	الطلاق	٩٩
			٩٨	البينة	١٠٠
			٥٩	الحشر	١٠١
			١١٠	النصر	١٠٢
			٢٤	النور	١٠٣
			٢٢	الحجّ	١٠٤
			٦٣	المنافقون	١٠٥
			٥٨	المجادلة	١٠٦
			٤٩	الحجرات	١٠٧
			٦٦	التحرّيم	١٠٨

١ - جعل الزركشي في البرهان سورة الصف

بعد التحريم وقبل الجمعة.

٢ - قدّم الزركشي براءة على المائدة وجعل هذا

الأخير آخر السور.

الأسئلة

١. كيف يمكن الجمع بين القول بنزول القرآن في شهر رمضان وبعثة النبي ﷺ في شهر رجب مع العلم بأن البعثة اقترنت بنزول آي من القرآن؟
٢. ما هي التأويلات في الجمع بين نزول القرآن في شهر رمضان و النزول في مدة الرسالة؟ وما هو التأويل الصحيح؟ لماذا؟
٣. لم لا يصح الالتزام بأن المراد من نزول القرآن في شهر رمضان نزول قرآن في شأنه؟
٤. هل يصح القول بأن نزول معظم القرآن كان في شهر رمضان؟ لماذا؟
٥. ما هو رأي الشيخ الصدوق رحمه الله في نزول القرآن؟
٦. كيف يجمع العلامة المجلسي بين الآيات والروايات الواردة في نزول القرآن؟
٧. ما هو رأي الطبراني في نزول القرآن؟
٨. ما هو رأي الفخر الرازي في تأويل الأحاديث الواردة في النزول الدفعي والتدريجي؟
٩. ما هو رأي الفيض الكاشاني رحمه الله في تأويل الأحاديث الواردة في النزول الدفعي والتدريجي؟
١٠. اشرح رأي العلامة الطباطبائي رحمه الله في النزول الدفعي والتدريجي.

١١. لَمْ لَانَقْبَلِ التَّأْوِيلَاتِ الْمَذْكُورَةَ فِي النُّزُولِ الدَّفْعِيِّ وَالتَّدْرِيجِيِّ؟
١٢. اشرح رأي الشيخ المفيد رحمته الله في النزول الدفعي والتدريجي؟
١٣. لَمْ لَا يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: «لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ»، عَلَى النُّزُولِ الدَّفْعِيِّ؟
١٤. لَمْ لَا يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ»، عَلَى النُّزُولِ الدَّفْعِيِّ؟
١٥. مَا هِيَ الْأَقْوَالُ فِي أَوَّلِ مَا نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَكَيْفَ يَجْمَعُ بَيْنَهَا؟
١٦. لَمْ سَمِّتِ سُورَةُ الْحَمْدِ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ؟
١٧. مَا هِيَ الْأَقْوَالُ فِي آخِرِ مَا نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَكَيْفَ يَجْمَعُ بَيْنَهَا؟
١٨. مَا هِيَ الْفَائِدَةُ لِمَعْرِفَةِ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ؟
١٩. مَا هِيَ الْمَلَكَاتُ فِي تَعْيِينِ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ؟ وَ مَا هُوَ الْأَرْجَحُ مِنْهَا؟
٢٠. كَمْ عَدَدُ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ؟
٢١. كَمْ عَدَدُ السُّورِ الْمَدَنِيَّةِ؟

أسباب النزول

إذا كان القرآن ينزل تدريجياً و لمناسبات شتى كانت تستدعي نزول آية أو آيات تعالج شأنها، فقد اصطَلَحُوا على تسمية تلك المناسبات بأسباب النزول أو شأن النزول،^(١) وهو علم شريف و لمعرفة دور خطير في فهم معاني القرآن الكريم و حلّ معضلات التفسير.

١- إن كانت هناك مشكلة حاضرة، سواء أكانت حادثة أبهم أمرها، أم مسألة خفي وجه صوابها، أم واقعة ضلَّ سبيل مخرجها، فنزلت الآية لتعالج شأنها و تضع حلاً لمشكلتها، فتلك هي أسباب النزول أي السبب الداعي والعلّة الموجبة لنزول قرآن بشأنها. و شأن النزول هو الأمر الذي نزل القرآن - آية أو سورة - لتعالج شأنه بياناً و شرحاً أو اعتباراً بمواضع اعتباره. كما في أكثرية قصص الماضين والإخبار عن أمم سالفين، أو عن مواقف أنبياء و قدّيسين، كانت مشوّهة وكادت تمسّ من كرامتهم أو تحطّ من قدسيّتهم، فنزل القرآن ليعالج هذا الجانب، و يبيّن الصحيح من حكاية حالهم والواقع من سيرتهم بما يرفع الإشكال والإيهام. و عليه فالفارق بين السبب والشأن - اصطلاحاً - أنّ الأوّل يعني مشكلة حاضرة لحادثة عارضة. والثاني مشكلة أمر واقع، سواء أكانت حاضرة أم غابرة. و قولهم: نزلت في كذا... أعمّ، قد يراد السبب العارض، و قد يراد شأن أمر واقع في الغابر... و قال الزركشي: و قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أنّ أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا... فإنّه يريد بذلك أنّ هذه الآية تتضمّن هذا الحكم، لا أنّ هذا كان السبب في نزولها... راجع: البرهان: ١/ ٣١-٣٢.

لضرورة دين أو متنافراً مع بديهية العقل .

مثلاً: روى البخاري و ~~مسلم~~ عن المسيّب، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ و عنده أبو جهل و عبدالله بن أبي أمية، فقال النبي ﷺ: «أي عم! قل: لا إله إلا الله، أحاجّ لك بها عند الله». فقال أبو جهل و عبدالله: «يا أبا طالب! أترغب عن ملة عبدالمطلب؟»، فقال النبي ﷺ: «لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنك»، فنزلت ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(١).

مع أن أبا طالب ﷺ مات قبل الهجرة بثلاث سنين، و كان عضداً قوياً لرسول الله ﷺ، أما آية براءة فإنها نزلت في سنة التسع من الهجرة، أي بعد وفاة أبي طالب باثنتي عشرة سنة. هذا فضلاً عن الدلائل الوفيرة على إسلام أبي طالب، و لا يقول بكفره إلا ذوو الأحقاد على الإسلام و المسلمين أحقاد بدر و حنين.

التنزيل والتأويل:

روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس من القرآن آية إلا و لها ظهر و بطن»^(٢).

قال الإمام الباقر عليه السلام: «ظهر القرآن الذين نزل فيهم، و بطنه الذين

١- براءة: ١١٣، صحيح البخاري: ٨٧/٦.

٢- بحار الأنوار: ١٥٥/٣٣.

عملوا بمثل أعمالهم»^(١). وذلك أن للآية وجهاً مرتبطاً بالحادثة الواقعة - التي استدعت نزولها - و وجهاً آخر عاماً تكون الآية بذلك دستوراً كلياً يجري عليه المسلمون أدياً، و كما أن الآية عالجت - بوجهها الخاص - مشكلة حاضرة، فإنها - بوجهها العام - تعالج مشاكل الأمة على مرّ الأيام. غير أن الوقوف على تأويل القرآن و فهم بطون الآيات، إنما هو من اختصاص الراسخين في العلم.

مثلاً: قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢). هذه الآية تبدو - في ظاهرها - متعارضة مع آيات التوجّه في الصلاة شطر المسجد الحرام^(٣). و لكن مع ملاحظة سبب النزول، و أنّه دفع لشبهة اليهود و رفع لارتياهم في تحويل القبلة، يتبيّن أن لا معارضة، و يرتفع الإبهام عن وجه الآية، لأنّ الاستقبال في الصّلاة والعبادات أمر اعتباريّ محض، ينوط باعتبار صاحب الشريعة في مصالح يراها مقتضية حسب الأحوال والأوضاع، و ليس وجه الله محصوراً في زاوية القدس الشريف أو الكعبة المكرّمة.

و قد فهم الأئمّة عليهم السلام أمراً آخر أيضاً، استخرجوه من باطن الآية، و أنّها تعني جواز التطوّع بالنوافل إلى حيث توجّهت به راحلتك، أو اشتبهت القبلة، فتصلي إلى أيّ جهات شئت.

١- تفسير العياشي: ١/ ١١، ح ٤

٢- البقرة: ١١٥.

٣- البقرة: ١٤٤ و ١٤٩ و ١٥٠.

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص المورد:

هذه قاعدة أصولية مطردة في جميع أحكام الشريعة المقدسة، فما يصدر من منابع الوحي و الرسالة بشأن بيان أحكام الله و تكاليفه للعباد، ليس يخصّ مورداً دون مورد، و لم يأت الشرع لمعالجة حوادث معاصرة فقط، و إنما هو شرع للجميع. الأمر الذي دعا الفقهاء إلى إلغاء الخصوصيات المورديّة و الأخذ بإطلاق الحكم. نعم هناك بعض الخطابات مع فئات معهودة، صدرت على نحو القضية الخارجية،^(١) فإنّها لا تعمّ بلفظها، و إن كانت قد تعمّ بملاكها، إذا كان قد أحرز يقيناً.

مثلاً: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(٢).

قال العلامة الطباطبائي رحمه الله: «لا يبعد أن يكون المراد هم الكفار من صناديد قريش و كبراء مكّة الذين عاندوا و لجّوا في أمر الدين و لم يألوا جهداً في ذلك. إذ لا يمكن استطراد هذا التعبير في حقّ جميع الكفار، وإلاّ لانسدّ باب الهداية. فالأشبه أن يكون المراد من «الذين كفروا» هاهنا و في سائر الموارد من كلامه تعالى هم كفّار مكّة في أوّل البعثة، إلاّ

١- من مصطلح علم المنطق، و هي عبارة عن معهودية الموضوع في القضية، كقولك: أكرم من في المسجد أو في المدرسة، تريد من هو في مسجد البلد أو مدرسته في الحال الحاضر. و ليس في كلّ الأزمان و كلّ المساجد والمدارس على الإطلاق.

أن تقوم قرينة على خلافه...نظير ما سيأتي أن المراد من قوله «الذين آمنوا» فيما أُطلق في القرآن من غير قرينة على إرادة الإطلاق، هم السابقون الأولون من المؤمنين. خصوصاً بهذا الخطاب تشريعاً^(١). نعم هذا الحكم يسري فيمن شابه أولئك في العناد واللجاج مع الحق بعد الوضوح.

نزول القرآن بـ«إِيَّاكَ أَعْنِي فَاسْمَعِي يَا جَارَةَ»:

قال الإمام الصادق عليه السلام: «نزل القرآن بـ«إِيَّاكَ أَعْنِي فَاسْمَعِي يَا جَارَةَ»^(٢) وهذا مَثَلٌ لِمَنْ يَخَاطَبُ شَخْصاً أَوْ يَتَكَلَّمُ عَنْ أَمْرٍ وَهُوَ يَرِيدُ غَيْرَهُ عَلَى سَبِيلِ الْكِنَايَةِ وَالتَّعْيِيزِ.

وقال عليه السلام أيضاً: «ما عاتب الله نبيّه فهو يعني به من قد مضى في القرآن، مثل قوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾^(٣)، عني بذلك غيره عليه السلام^(٤)». قوله «من قد مضى في القرآن» أي مضى ذكره إشارة أو تلويحاً و ربّما نصّاً. والأكثر أن يراد أمته عليه السلام بالعتاب، ولاسيما المؤمنون صدر الإسلام، كانوا على قلقٍ واضطراب في مواضعهم مع الكفار.

١- تفسير الميزان: ٥٠ / ١.

٢- تفسير العياشي: ١٠ / ١، ح ٤.

٣- الإسراء: ٧٤.

٤- تفسير العياشي: ١٠ / ١، ح ٥.

كيف الاهتداء إلى معالم القرآن؟

خير وسيلة لفهم معالم القرآن هو اللجوء إلى أبواب رحمة الله و منابع فيضه القدسي، أهل بيت الوحي، الذين هم أدرى بما في البيت. فإنّ بيدهم مفاتيح هذه الأبواب. فإنّهم عدل القرآن و أحد الثقلين الذين أوصى بهما الرسول الكريم ﷺ و في كلماتهم الكثير من الإرشادات إلى معالم القرآن و فهم حقائقه، ممّا لا تجده في كلام غيرهم.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾^(١) فلولا الامتناعية دلّت على أنّ الهمّ من يوسف لم يقع... لكن ما المراد من «برهان ربّه» الذي منعه و عصمه من همّ المعصية؟ قيل: إنّه رأى صورة أبيه عاشراً على إصبعه، و قيل: غير ذلك، ممّا يتنافى مع عصمة مقام النبوة. والصحيح ما هدانا إليه الأئمة الراشدون: أنّه الإيمان الصادق الذي هو منشأ العصمة في أنبياء الله ﷺ، بدليل تعقيبه بقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(٢) إشارة إلى مقام عصمة الأنبياء^(٣).

١- يوسف: ٢٤.

٢- يوسف: ٢٤.

٣- راجع: تفسير الميزان: ١١/١٤١ و ١٨١.

الأسئلة

١. ما هي الفائدة في معرفة شأن النزول؟ أذكر لذلك مثلاً.
٢. ما هو الشرط الأساسي للاستناد إلى شأن النزول؟ لماذا؟
٣. ما الفرق بين التأويل والتنزيل؟
٤. ما المراد من ظاهر القرآن وباطنه؟ أذكر لذلك مثلاً.
٥. اشرح هذه العبارة:
«العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص المورد».
٦. هل الخطابات التي صدرت في القرآن على نحو القضية الخارجية تعمّ غير المخاطبين بها؟
٧. ما المراد من قولهم: «إيّاك اعني فاسمعي يا جارة»؟ وكيف نزل القرآن بهذا؟ أذكر لذلك مثلاً.
٨. لم نحتاج في فهم معالم القرآن إلى الأئمة المعصومين عليهم السلام؟ أذكر لذلك مثلاً.

تأليف القرآن

تأليف القرآن في شكله الحاضر - في نظم آياته و ترتيب سورته، و كذلك في تشكيله و تنقيطه و تفصيله إلى أجزاء و مقاطع - لم يكن وليد عامل واحد، و لم يكتمل في فترة الوحي الأولى. فقد مرّت عليه أدوار و أطوار، ابتدأت بالعهد الرسالي، و انتهت بدور توحيد المصاحف على عهد عثمان، ثمّ إلى عهد الخليل بن أحمد النحويّ الذي أكمل، تشكيله بالوضع الموجود.

و المهمّ الآن هو العناية بدراسة القرآن من زاوية جمعه و تأليفه مصحفاً بين دفتين و البحث عن الفترة التي حصل فيها هذا الجمع و التأليف و عن العوامل التي لعبت هذا الدور الخطير.

و البحث الحاضر يكتمل في ثلاث مراحل أساسية:

أولاً: نظم كلماته بصورة جمل و تراكيب كلاميّة ضمن الآيات.

ثانياً: تأليف آياته ضمن السور.

ثالثاً: ترتيب السور بين دفتين على صورة مصحف كامل.

نظم كلماته:

لا شك أنّ نظم الكلمات و الجمل و التعابير في القرآن، كلّها كانت بفعله تعالى، لم يحدث فيها أيّ تغيير أو تبديل، لا بزيادة و لا بنقص و لا بتغيير موضوعي أصلاً. ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(١)، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٢).
و لمزيد التوضيح نقول:

أولاً: إسناد الكلام إلى متكلم خاص يستدعي أن يكون هو العامل في تنظيم كلماته و أسلوبه التعبيري الخاص. و بما أنّ القرآن المجيد هو كلام الله العزيز الحميد، فلا بدّ أن يكون الوحي هو العامل الوحيد في تنظيم كلماته جملاً و تراكيب كلاميّة بديعة.

ثانياً: كان القسط الأوفر من إعجاز القرآن كامناً وراء هذا النظم البديع. و قد تحدّى القرآن فصحاء العرب و أرباب البيان - بصورة عامّة - لو يأتون بمثل هذا القرآن و ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾^(٣). و تجويز إمكان تدخّل يد بشرية في نظم القرآن، كان بمعنى إبطال هذا التحدي الصارخ.

ثالثاً: اتفاق كلمة الأمة في جميع أدوار التاريخ على أنّ النظم الموجود في الآيات الكريمة هو من صنع الوحي السماوي. الأمر الذي التزم به جميع

١- فصلت: ٤٢.

٢- الحجر: ٩.

٣- الإسراء: ٨٨.

الطوائف الإسلامية، على مختلف آرائهم في سائر المواضع. ومن ثم لم يتردد أحد من علماء الأدب والبيان في آية قرآنية جاءت مخالفة لقواعد رسموها، في أخذ الآية حجة قاطعة على تلك القاعدة وتأويلها إلى ما يلتزم وتركيب الآية. وذلك علماً منهم بأن النظم الموجود في الآية وحي لا يتسرّب إليه خطأ البتة، وإنما الخطأ فيما استنبطوه من قواعد مرسومة.

مثال ذلك قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ»^(١) فزعموا أن الحال لا تتقدّم على صاحبها المجرور بحرف، والآية جاءت مخالفة لهذه القاعدة. ولجأ ابن مالك إلى نبذ القاعدة، لأنها مخالفة للآية، قال:

وَسَبَقَ حَالٌ مَا بِحَرْفٍ جُرَّ قَدْ أَبَوَا وَلَا أُمْنَعُهُ فَقَدْ وَرَدَ

تأليف آياته:

تأليف الآيات ضمن كل سورة، على الترتيب الموجود، قد تحقق - في الأكثر - وفق ترتيب نزولها. كانت السورة تبتدأ بـ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فتسجّل الآيات التي تنزل بعدها من نفس هذه السورة، واحدة تلو أخرى تدريجياً حسب النزول، حتى تنزل بسملة أخرى، فيعرف أن السورة قد انتهت وابتدأت سورة أخرى. قال الإمام الصادق عليه السلام: «كان يعرف انقضاء السورة بنزول «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ابتداءً لأخرى»^(٢).

١ - سبأ: ٢٨.

٢ - تفسير العياشي: ١/١٩، ح ٥.

و هذا الترتيب نسّميه بالترتيب الطبيعي .

و هناك عامل آخر عمل في نظم قسم من الآيات على خلاف ترتيب نزولها، و ذلك بنصّ من رسول الله ﷺ . كان يأمر - أحياناً - بثبت آية في موضع خاصّ من سورة سابقة كانت قد ختمت من قبل . روي أنّ آخر آية نزلت، قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، فأشار جبرئيل أن توضع بين آيتي الربا والدين من سورة البقرة. ^(١)

و ربّما كانت السورة تفتتح، و قبل أن تكتمل، تفتتح سورة أخرى و تكتمل الأخيرة قبل أن تكتمل الأولى. و ذلك كان بأمر النبي ﷺ و بإشارته، كما في سورة البقرة، هي أول سورة ابتدئ نزولها بالمدينة بعد الهجرة، لكنّها استمرّ نزولها سنوات، إذ فيها الكثير من الآيات نزلن في هذه الفترات المتأخّرة، منها: آية ﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾. ^(٢) إنّها نزلت عندما تخرج المسلمون من السعي بين الصفا والمروة لمكان أساف و نائلة عليهما، و كان المشركون وضعوهما على الجبلين يطوفون بهما و يلمسونهما. فنزلت الآية دفعا لتوهّم الحظر. الأمر الذي يستدعي نزولها بعد صلح الحديبية في عمرة القضاء، ^(٣) و هو عام الستّ من الهجرة. أو لعلّ النبي ﷺ أمر بوضع الآية في هذا الموضع من السورة. والله العالم.

١- الإتيان: ٦٢/١.

٢- البقرة: ١٥٨.

٣- روي ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام، راجع: تفسير العياشي، ١/ ٧٠ و ١٣٣.

ترتيب سورة:

كانت سور القرآن مكتملة على عهده ﷺ مرتبة آياتها وأسمائها، غير أن جمعها بين دفتين لم يكن حصل بعد، نظراً لترقب نزول قرآن في عهده ﷺ فما دام لم ينقطع الوحي لم يصح تأليف السور مصحفاً إلا بعد الاكتمال وانقطاع الوحي، الأمر الذي لم يكن يتحقق إلا بانقضاء عهد النبوة و اكتمال الوحي. قال الإمام الصادق عليه السلام: قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: «يا علي! القرآن خلف فراشي في الصحف والحريير والقرطيس، فخذوه واجمعوه ولا تضيّعوه» (١).

هذا هو المعروف عن رواية الآثار و عند الباحثين عن شؤون القرآن، منذ الصدر الأول إلى يومنا هذا. ولكن مع ذلك نجد من ينكر ذلك التفصيل في جمع القرآن، و يرى أن القرآن بنظمه القائم و ترتيبه الحاضر كان قد حصل في حياة الرسول ﷺ.

و قد ذهب إلى هذا الرأي جماعة من علماء السلف و وافقهم علم الهدى السيد المرتضى عليه السلام واستدلّ على ذلك بأن القرآن كان يدرس و يحفظ جميعه في ذلك الزمان حتّى عين جماعة من الصحابة في حفظهم له، و أنّه كان يعرض على النبي ﷺ و يتلى عليه. و أنّ جماعة من الصحابة مثل عبدالله بن مسعود و أبي بن كعب و غيرهما ختموا القرآن على النبي ﷺ عدّة ختمات. و كلّ ذلك يدلّ بأدنى تأمل على أنّه كان مجموعاً مرتباً. (٢)

١- بحار الأنوار: ٤٨/٩٢، ح ٧ عن تفسير علي بن إبراهيم.

٢- مجمع البيان: ١٥/١.

لكن حفظ القرآن هو بمعنى حفظ جميع سورة التي اكتملت آياتها، سواء كان بين السور ترتيب أم لا. وهكذا ختم القرآن هو بمعنى قراءة جميع سورة من غير لحاظ ترتيب خاصّ بينها. أو الحفظ كان بمعنى الاحتفاظ على جميع القرآن النازل لحدّ ذاك والتحفظ عليه من الضياع والتفرقة، وهو لا يدلّ على وجود ترتيب خاصّ بين سورة كما هو الآن.

جمع علي بن أبي طالب عليه السلام:

أول من تصدّى لجمع القرآن بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة وبوصيّة منه هو علي بن أبي طالب عليه السلام. قعد في بيته مشغلاً بجمع القرآن و ترتيبه على ما نزل، مع شروح و تفاسير لمواضع مبهمه من الآيات و بيان أسباب النزول و مواقع النزول بتفصيل.

قال عليه السلام: «ما نزلت آية على رسول الله ﷺ إلا أقرأنيها و أملاها عليّ فأكتبها بخطّي. و علّمني تأويلها و تفسيرها و ناسخها و منسوخها و محكمها و متشابها. و دعا الله لي أن يعلّمني فهمها و حفظها فمانست آية من كتاب الله و لا علماً أملاه عليّ فكتبته منذ دعا لي ما دعا»^(١). و بعث القوم إليه ليباع فاعتذر باشتغاله بجمع القرآن، فسكتوا عنه أياً ما حتّى جمعه في ثوب واحد و ختمه ثمّ خرج إلى الناس و هم مجتمعون حول أبي بكر في

المسجد و خاطبهم قائلاً: «إني لم أزل منذ قبض رسول الله ﷺ مشغولاً بغسله و تجهيزه ثم بالقرآن حتى جمعته كله في هذا الثوب الواحد و لم ينزل الله على نبيه آية من القرآن إلا و قد جمعتها، وليس منه آية و قد أقرأنيها رسول الله ﷺ و علمني تأويلها، أن تقولوا غداً: إنا كنا عن هذا غافلين!». فقام إليه رجل من كبار القوم - و في رواية أبي ذر: فنظر فيه فلان و إذا فيه أشياء^(١) - فقال يا علي أردده فلا حاجة لنا فيه، ما أغنانا بما معنا من القرآن عما تدعوننا إليه فدخل علي ﷺ بيته.^(٢)

و هذا المصحف يتوارثه أوصياؤه الأئمة من بعده، واحداً بعد واحدٍ لا يرونه لأحد.^(٣) و في عهد عثمان حين اختلفت المصاحف و أثار ضجة بين المسلمين، قال طلحة للإمام ﷺ: «ما يمنعك - يرحمك الله - أن تخرج كتاب الله إلى الناس؟»، فكف ﷺ عن الجواب أولاً، فكرر طلحة السؤال، فقال: «لأراك يا أبا الحسن أجبني عما سألتك من أمر القرآن ألا تظهره للناس؟»، قال ﷺ: «يا طلحة! عمداً كففت عن جوابك. فأخبرني عما كتبه القوم أقرآن كله أم فيه ما ليس بقرآن؟»، قال طلحة: «بل قرآن كله». قال ﷺ: «إن أخذتم بما فيه، نجوتم من النار و دخلتم الجنة»، قال طلحة: «حسبي، أما إذا كان قرأناً فحسبي».^(٤)

١ - احتجاج الطبرسي: ٨٢.

٢ - كتاب سليم بن قيس: ٧٢.

٣ - بحار الأنوار: ٤٢/٩٢، ح ١.

٤ - سليم بن قيس: ١١٠ و بحار الأنوار: ٤٢/٩٢، ح ١.

جمع زيد بن ثابت:

كان ذلك الإنكار الشديد لمصحف علي عليه السلام يستدعي التفكير في القيام بجمع القرآن مهما كلف الأمر، بعد أن أحسَّ الناس بضرورة جمع القرآن، و لا سيما كانت وصية نبيهم ﷺ بجمعه لئلا يضيع، كما ضيعت اليهود توراتهم^(١). مضافاً إلى أنه قد استحرَّ القتل بكثير من حامليه و يوشك أن يذهب القرآن بذهاب حامليه، فقد قتل منهم سبعون في واقعة يمامة. و في رواية: أربعمأة^(٢).

و هذه الفكرة أبداها عمر بن الخطاب، واقترح على أبي بكر - و هو ولي المسلمين يوم ذاك - أن ينتدب لذلك من تتوفر فيه شرائط القيام بهذه المهمة الخطيرة، فوقع اختيارهم على زيد بن ثابت، و هو شاب حدث و له سابقة كتابة الوحي أيضاً. فقد ملك الجدارة الذاتية من غير أن يخشى منه على جوانب الخلافة الفتية في شيء، كما كان يخشى من غيره من كبار الصحابة، و فيهم شيء من الجموح و عدم الانقياد التام لميول السلطة وأهدافها آنذاك.

منهج زيد:

وجّه زيد نداء عاماً إلى ملأ الناس: «من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به». و ألف لجنة من خمسة و عشرين عضواً - كما

١ - تفسير القمي: ٧٤٥.

٢ - فتح الباري: ٤٤٧/٧.

جاء في رواية اليعقوبي^(١) - و كان عمر يشرف عليهم بنفسه . و كان اجتماعهم على باب المسجد يومئذ والناس يأتونهم بأي القرآن و سوره ، كلّ حسب ما عنده من القرآن .

و من غريب الأمر أنّ عمر جاء بآية الرّجم وزعمها من القرآن : «الشيخُ والشيخةُ إذا زَنيا فارجوهما البتّة نكالا من الله» ، لكنّه واجه بالرفض ، ولم تقبل منه ، لأنّه لم يستطع إثبات أنّها من القرآن . و بقي أثر ذلك في نفس عمر ، فكان يقول -أيّام خلافته :- «لولا أن يقول الناس : «زاد عمر في كتاب الله» ، لكتبتها بيدي -يعني آية الرّجم -» .^(٢)

ثم إنّ جمع زيدٍ لم يكن مرتّباً و لا منظّمًا كمصحف ، وإنّما كان الاهتمام في ذلك الوقت على جمع القرآن عن الضياع ، و ضبط آياته و سوره حذراً عن التلف بموت حامله ، فدوّنت في صحف و جعلت في إضبارة ، و أودعت عند أبي بكر مدّة حياته ، ثمّ عند عمر بن الخطّاب حتّى توفاه الله ، فصارت عند ابنته حفصة ، و هي النسخة التي أخذها عثمان لمقابلة المصاحف عليها ، ثمّ ردّه عليها ، و كانت عندها إلى أن ماتت ، فاستلها مروان من ورثتها حينما كان والياً على المدينة من قبل معاوية ، فأمر بها فشقت .^(٣)

١ - تاريخ اليعقوبي : ١١٣ / ٢ .

٢ - تفسير ابن كثير : ٢٦١ / ٣ . والبرهان : ٣٥ / ٢ . والإتقان : ٢٦ / ٢ .

٣ - إرشاد الساري : ٤٤٩ / ٧ .

مصاحف أخرى للصّحابة

في الفترة بعد وفاة النبي ﷺ قامت جماعة من كبار الصحابة بتأليف القرآن و جمع سوره بين دفتين، كلّ بنظم و ترتيب خاصّ، و كان يسمّى مصحفاً. و حاز بعض هذه المصاحف مقاماً رفيعاً في المجتمع الإسلامي آنذاك، فكان أهل الكوفة يقرأون على مصحف عبدالله بن مسعود و أهل البصرة على مصحف أبي موسى الأشعري. و أهل الشام على مصحف أبي بن كعب و...^(١)

لكن كان أمد هذه المصاحف قصيراً جداً انتهى بزمن توحيد المصاحف على عهد عثمان فذهبت مصاحف الصحابة عرضة التمزيق و الحرق. أرسل عثمان إلى كلّ أفق بمصحف ممّا نسخوا، و أمر بما سواه من القرآن في كلّ صحيفة أو مصحف أن يحرق.^(٢) نعم حظيت بعضها عمراً أطول، كالصحف التي كانت عند حفصة.

وكان الوصف العامّ الذي كانت مصاحف الصحابة في ذلك الزمان تتّسم به، هو تقديم السور الطوال على القصار نوعاً ما في ترتيب منهجيّ خاصّ، يقرب من الترتيب الموجود في القرآن الآن.

١- الكامل في التاريخ: ٥٥/٣. و راجع: صحيح البخاري: ٢٢٥/٦. و المصاحف للسبستاني:

١١-١٤. و البرهان: ١/٢٢١-٢٤٣.

٢- صحيح البخاري: ٢٢٦/٦.

الأسئلة

١. ما الدليل على أن نظم كلمات القرآن كان من قبل الله تبارك و تعالى؟
٢. ما معنى حكومة القرآن على القواعد الأدبية؟ أذكر لذلك مثلاً.
٣. ما المراد من الترتيب الطبيعي في تأليف آيات القرآن ضمن كل سورة؟
٤. هل هناك عامل آخر يكون مؤثراً في تأليف آيات القرآن غير الترتيب الطبيعي؟ وضح ذلك بالمثال.
٥. كم استمر نزول سورة البقرة؟ و هل نزل في خلاها سورة أخرى أم لا؟
٦. ما الدليل على أن ترتيب سور القرآن حصل بعد وفاة النبي ﷺ؟
٧. ما هو دليل القائلين بأن ترتيب سور القرآن حصل في حياة النبي ﷺ؟ وما هو الجواب على أدلتهم؟
٨. من هو أول من تصدى بجمع القرآن بعد وفاة النبي ﷺ بوصية منه؟
٩. أذكر مميزات قرآن أمير المؤمنين عليه السلام.
١٠. ماذا فعل علي عليه السلام بقرآنه بعد جمعه؟
١١. لماذا أمر أبو بكر بجمع القرآن؟
١٢. ما هي العلة التي استدعت باختيار زيد بن ثابت لجمع القرآن؟
١٣. ما هو منهج زيد بن ثابت في جمع القرآن؟
١٤. بين أمد المصحف الذي جمعه زيد بن ثابت.
١٥. أي مصحف من مصاحف الصحابة حاز مقاماً رفيعاً في

المجتمع الإسلامي؟

١٦. إلى أيّ أمدٍ بقيت مصاحف الصحابة؟

١٧. ما هو الوصف العام الذي كانت مصاحف الصحابة تتسم به؟

توحيد المصاحف

سبق أنّه بعد وفاة النبي ﷺ قد اهتمّ كبار الصحابة بتأليف سور القرآن و جمع آياته حسب ما أوتوا من علم و كفاءة، كلّ في مصحف يخصّه. و من لم يقدر على ذلك لجأ إلى غيره ليستنسخ له مصحفاً أو يجمع له آيات و سوراً في صحف. و هكذا أخذت نسخ المصاحف تتزايد اطراداً مع اتّساع رقعة الإسلام. و لما كان جامعو المصاحف متعدّدين و متباعدين و مختلفين بحسب الكفاءة والمقدرة والاستعداد، كانت طبيعة الحال تقتضي باختلاف المصاحف أسلوباً و ترتيباً و قراءة و غيرها. و هذا الاختلاف كان بلا شكّ يستدعي اختلافاً بين الناس عند اجتماعهم، فربّما كان المسلمون يجتمعون في غزوة أو احتفال و هم من أقطار متباعدة فيقع بينهم نزاع و جدال و إنكار أحدهم على الآخر فيما يتعصّبون له من مذهب أو عقيدة أو رأي. فبعضهم يرى أنّ قراءتهم خير من قراءة غيرهم.^(١)

وبعضهم يكفر أحياناً بقراءة بعض^(١).

فكرة توحيد المصاحف:

إنَّ أوَّل من فكَّر في توحيد المصاحف هم حذيفة بن اليمان، فإنَّه في سفره إلى غزو أرمينية - آذربيجان - شاهد اختلاف الناس في القراءات، فلما رجع إلى الكوفة حلف ليايتين الخليفة وليأمرته بمجعلها قراءة واحدة، كما استشار هو من كان بالكوفة من صحابة الرسول ﷺ فوافقوه على ما عزمه،^(٢) سوى عبدالله بن مسعود. ثمَّ سار إلى المدينة يستحثَّ عثمان على إدراك أمة محمد ﷺ قبل تفرُّقها فجمع عثمان الصحابة وأخبرهم الخبر، فأعظموه و رأوا جميعاً ما رأى حذيفة.^(٣)

وهكذا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أبدى رأيه موافقاً لهذا الأمر، قال عليه السلام: «فوالله ما فعل عثمان الذي فعل في المصاحف إلَّا عن ملأ منّا. استشارنا في أمر القراءات... قلنا: فماذا رأيت؟ قال: أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف. قلنا: فنعم ما رأيت». ^(٤) وفي رواية أخرى قال: «لو وليت في المصاحف ما وليَّ عثمان لفعلت كما فعل». ^(٥)

١- الإتيان: ٥٩/١.

٢- الكامل في التاريخ: ٥٥/٣.

٣- الكامل في التاريخ: ٥٥/٣.

٤- المصاحف للسجستاني: ٢٢.

٥- النشر: ٨/١. والمصاحف للسجستاني: ٢٣.

وكان عليه السلام - بعد ما تولى الخلافة - أحرص الناس على الالتزام بالمصحف المرسوم - حتى ولو كانت فيه أخطاء املأته - حفظاً على كتاب الله من أن تمسه يد التحريف فيما بعد باسم الإصلاح.

وهكذا سار على منهجه عليه السلام الأئمة من ولده عليه السلام :

قرأ رجل عند الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام حروفاً من القرآن ليس على ما يقرؤه الناس! فقال له الإمام عليه السلام : «مه مه! كف عن هذه القراءة واقرأ كما يقرأ الناس». ومن ثم وقع إجماع أصحابنا الإمامية على أن ما بأيدينا هو قرآن كله،^(١) لم تمسه يد تحريف أصلاً. وأن القراءة المشهورة هي القراءة الصحيحة، التي تجوز القراءة بها في الصلاة وغيرها من أحكام أجروها على النص الموجود، واعتبروه القرآن الذي أوحى إلى النبي ﷺ و لم يعتبروا شيئاً سواه.

وأما ابن مسعود فلا أظن مخالفته كانت جوهرية، وإنما أغضبه انتداب أشخاص غير أكفاء لهذا الأمر الخطير كان أمثاله جديرين له. كما يظهر من كلامه حيث قال: «يا معشر المسلمين أعزل عن نسخ المصاحف ويتولّاها رجل، والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر - يريد زيد ابن ثابت -». (٢)

١ - راجع: حديث طلحة مع الإمام عليه السلام. بحار الأنوار: ٩٢/٤١ - ٤٢، ح ١.

٢ - فتح الباري: ١٧/٩.

لجنة توحيد المصاحف:

ندب عثمان أربعة للقيام بهذا الأمر وهم زيد بن ثابت - وهو أنصاري -
و سعيد بن العاص و عبدالله بن الزبير و عبد الرحمن بن الحارث بن
هشام - و هم قرشيون -^(١) و كانت الرياسة لزيد كما يظهر من كلام ابن
مسعود المتقدم آنفاً.

لكن هؤلاء الأربعة لم يستطيعوا القيام بصميم الأمر و من ثم استعانوا
بجماعة أخرى مثل عبدالله بن عباس و أبي بن كعب و غيرهما. و في هذه
المرحلة كانت الرياسة مع أبي بن كعب فكان هو يملئ و يكتب الآخرون.^(٢)
و كان هذا في سنة خمس وعشرين، في السنة الثالثة أو الثانية من خلافة
عثمان، كما قال ابن حجر.^(٣)

اختارت لجنة توحيد المصاحف في عملها ثلاث مراحل أساسية:

١- جمع المصاحف أو الصحف التي فيها قرآن من أطراف البلاد
الإسلامية و إتحائها. فقد أرسل عثمان إلى كل أفق من يجمع المصاحف أو
الصحف التي فيها قرآن و أمر بها أن تحرق.^(٤) فلم يبق مصحف إلا فعل به
ذلك خلا مصحف ابن مسعود فامتنع أن يدفع مصحفه إلى عبدالله بن عامر

١- صحيح البخاري: ٢٢٦/٦.

٢- المصاحف للسجستاني: ٣٠.

٣- فتح الباري: ١٥/٩. والترديد باعتبار الاختلاف في أن يوم البيعة لعثمان هل هو العشر الأخير من
ذي الحجة عام ٢٣ أو العشر الأول من محرم عام ٢٤. راجع تاريخ الطبري: ٣٠٣/٣.

٤- صحيح البخاري: ٢٢٦/٦.

فأمر به عثمان فجزّ برجله حتى كسر له ضلعان.^(١)

٢- البحث عن منابع صحيحة لغرض النسخ عليها مصاحف متعدّدة و بثّها بين المسلمين. ففي هذه المرحلة كان عثمان في بدء الأمر زعمها هيّنة، و ثمّ اختار لها جماعة غير أكفاء ثمّ لجأ إلى جماعة آخرين و فيهم الأكفاء، مثل سيّد القراء الصحابي الكبير أبيّ بن كعب. و أرسل إلى الصحف التي جمع فيها القرآن أيام خلافة أبي بكر - وهي كانت في بيت حفصة - للمقابلة عليها فأبت حفصة لأوّل أمرها أن تدفع إليه حتى عاهدها عثمان ليردّها فبعث بها إليه.^(٢)

٣- مقابلة هذه المصاحف الموحّدة لغرض التأكّد من صحتها أوّلاً و عدم وجود اختلاف بينها ثانياً. ففي هذه المرحلة كان التساهل أوضح. حدّث ابن أبي داود عن بعض أهل الشام، كان يقول: «مصحفنا و مصحف أهل البصرة أحفظ من مصحف أهل الكوفة، لأنّ عثمان لما كتب المصاحف بلغه قراءة أهل الكوفة على حرف عبدالله. فبعث إليهم بالمصحف قبل أن يعرض - أي: قبل مقابله على سائر النسخ - و عرض مصحفنا و مصحف أهل البصرة قبل أن يبعث بهما».^(٣)

و روي أيضاً: «إنّهم عندما فرغوا من نسخ المصاحف أتوا به إلى عثمان، فنظر فيه فقال: قد أحسنتم و أجملتم. أرى فيه شيئاً من

١- تاريخ اليعقوبي: ١٥٩/٢ - ١٦٠.

٢- المصاحف للسجستاني: ٩.

٣- المصاحف للسجستاني: ٣٥.

اللحن - لكن - ستقيمه العرب بالسنتها. ثم قال: لو كان المملي من هذيل والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا»^(١).

قلت: ألم يكن كتاب الله العزيز الحميد جديراً بالاهتمام به ليكون خالياً من كل خطأ أو لحن؟! ثم ما هذا التمني الكاذب، وفي استطاعته بدء الأمر أن يختار مملياً من هذيل وكتبه من ثقيف، وهو يعلم أن فيهم الجدارة والكفاءة.

وهذا التساهل أحد أسباب الاختلاف في القراءة فيما بعد كما سيأتي.

عدد المصاحف العثمانية:

قال ابن أبي داود: «كانت ستة حسب الأمصار المهمة ذوات المركزية الخاصة: مكة والكوفة والبصرة والشام والبحرين واليمن. وحبس السابعة - وكانت تسمى الأم أو الإمام - بالمدينة»^(٢). و زاد يعقوبي: مصر والجزيرة^(٣). وكان المصحف المبعوث إلى كل قطر يحتفظ عليه في مركز القطر، يستنسخ عليه ويرجع إليه عند اختلاف القراءة. ويكون هو حجة. ومصحف المدينة كان مرجعاً للجميع بصورة عامة. وروي: «أن عثمان بعث مع كل مصحف قارئاً يقرئ الناس على قراءة ذلك المصحف»^(٤).

١- المصاحف للسجستاني: ٣٤.

٢- المصاحف للسجستاني: ٣٤.

٣- تاريخ يعقوبي: ٢/ ١٦٠.

٤- مناهل العرفان: ١/ ٣٩٦-٣٩٧.

تعريف المصاحف العثمانية:

١ - الترتيب: كانت المصاحف العثمانية - بصورة عامة - ذات ترتيب خاص - وهو الترتيب الحاضر في المصحف الكريم - يقرب من ترتيب مصاحف الصحابة مع اختلاف يسير.

٢ - النقط والتشكيل: كانت المصاحف العثمانية خالية عن النقط والتشكيل و كان على القاري بنفسه أن يميز بين الحروف المتشابهة - مثل الباء والياء والتاء والثاء - عند القراءة حسب ما يبدو له من قرائن. كما كان عليه أن يعرف هو بنفسه وزن الكلمة وكيفية إعرابها أيضاً. ومن ثم كانت قراءة القرآن في الصدر الأول موقوفة على مجرد السماع والنقل فحسب.

و هذا كان منشأ اختلاف القراءات إذ بطول الزمان ربّما كان يحصل اشتباه في النقل أو خلط في السماع مضافاً إلى تحلل الأمم غير العربية في الجزيرة و تضخم جانبهم مطّرداً مع التوسعة في القطر الإسلامي العريض.

كان الخطّ عندما اقتبسه العرب من السريان والأنباط، خالياً من النقط و لاتزال الخطوط السريانية بلا نقط إلى اليوم. ولما كثر التصحيف في القراءات بازدهام القطر الإسلامي بأجانب عن اللغة العربية قام نصر بن عاصم و يحيى بن يعمر تلميذا أبي الأسود الدّثلي بتنقيط المصحف. و ذلك في ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق من قبل عبد الملك بن مروان

(٧٥ - ٨٦ هـ). (١)

ثم إنّ القرآن في الصدر الأوّل كان محفوظاً في صدور الرّجال و مأموناً عليه من الخطأ واللّحن بسبب أنّ العرب كانت تقرؤه صحيحاً حسب سليقتها الفطرية التي كانت محفوظة لحدّ ذاك الوقت مضافاً إلى شدّة عنايتهم بالأخذ والتلقي عن مشايخ كانوا قريبي العهد بعصر النبوة. و لكن بعد منتصف القرن الأوّل حيث كثر الدخلاء - وهم أجانِب عن اللغة العربيّة - مسّ الحاجة إلى وضع علامات تؤمن عليهم الخطأ واللحن. من ثمّ عزم أبو الأسود الدّئلي على تشكيل المصحف و ذلك في زمن ولاية زياد بن أبيه على الكوفة (٥٠ - ٥٣ هـ).

قال جلال الدين السيوطي: «كان الشكل في الصدر الأوّل نقطاً، فالفتحة نقطة على أوّل الحرف والضمّة نقطة على آخره والكسرة تحت أوّله»^(١) و في الأغلب يكتبونها بلون غير لون خط المصحف والأكثر يكتبونها بلون أحمر. والظاهر أنّ تبديل النقط السود إلى نقطة ملوّنة حدث بعد وضع الإعجام للفرق بين النقطة التي هي علامة الحركة والتي هي علامة الإعجام. و أوّل من وضع الهمز والتشديد... الخليل بن أحمد الفراهيدي^(٢).

و هكذا كلّما امتدّ الزمان بالناس ازدادت عنايتهم بالقرآن و تيسير رسمه من طور إلى طور حتّى إذا كانت نهاية القرن الثالث الهجري بلغ

١- الإتيان: ١٧١ / ٢.

٢- الإتيان: ١٧١ / ٢ وكتاب النقط لأبي عمرو الداني: ١٣٣.

الرسم ذروته في الجودة والحسن.

وأما وضع علائم التحزيب والتجزئة فقليل: «إِنَّ الْمَأْمُونِ الْعَبَّاسِي هُوَ الَّذِي أَمَرَ بِذَلِكَ». وقيل: «إِنَّ الْحَجَّاجَ فَعَلَ ذَلِكَ»^(١).

و ينتصف القرآن على الفاء من قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾^(٢).
و عدد آياته - في قول علي عليه السلام -: ٦٢١٨ آية و في رواية: ٦٢٣٦ آية.
و قد اشتهر تحزيب القرآن و تجزئته إلى ثلاثين جزءً تسهيلاً لقراءته في المدارس و غيرها.

و أطول سورة في القرآن هي البقرة، و أقصرها الكوثر.
و أطول آية في القرآن آية الدين (البقرة: ٢٨٢). و أقصرها ﴿وَالضُّحَى﴾،^(٣) ثم ﴿وَالْفَجْرِ﴾.^(٤)

و أطول كلمة في القرآن ﴿فَأَسْقِنَا كُمُوهُ﴾.^(٥)

٣ - مخالفات في رسم الخط: إِنَّ الخطَّ وضع ليعبر عن المعنى بنفس اللفظ الذي ينطق به، وعليه فيجب أن تكون الكتابة مطابقة للفظ المنطوق به تماماً ليكون الخط مقياساً للفظ من غير زيادة أو نقصان. غير أن أساليب الإنشاء والكتابة تختلف عن هذه القاعدة بكثير و لكن لا بأس بذلك مادام

١ - راجع: البرهان للزركشي: ١/ ٢٤٩-٢٥٢.

٢ - الكهف: ١٩.

٣ - الضحى: ١.

٤ - الفجر: ١.

٥ - الحجر: ٢٢.

الاصطلاح العامّ جارياً عليه، فلا يسبّب اشتباهاً أو التباساً في المراد.
 و رسم الخط في المصحف الشريف تخلف حتى عن المصطلح العام.
 ففيه كثير من أخطاء إملائية و تناقضات في رسم الكلمات، بحيث إذا لم
 يكن سماع و تواتر في قراءة القرآن - و لا يزال المسلمون يتوارثونها جيلاً
 بعد جيل، في دقة و عناية بالغة - لأصبح قراءة كثير من كلمات
 القرآن - قراءة صحيحة - مستحيلة. و يرجع السبب - كما تقدّم - إلى عدم
 تسلّط العرب بفنون الخطّ و أساليب الكتابة ذلك العهد، بل و لم يكونوا
 يعرفون الكتابة غير عدد قليل خطأً بدائياً رديئاً كما يبدو على خطوط باقية
 من الصدر الأوّل.^(١) و لم يمّسوا القرآن بيد إصلاح بعد ذلك قطّ، لئلا يقع
 القرآن عرضة تحريف أهل الباطل بعدئذ بحجّة الإصلاح.

و ليس وجود أخطاء إملائية يمّس كرامة القرآن:

أولاً: القرآن - في واقعه - هو الذي يقرأ لا الذي يكتب. فما دامت
 القراءة باقية على سلامتها الأولى لا تضرّ الكتابة. و لا شك أنّ المسلمين
 احتفظوا على نصّ القرآن بلفظه المقروء صحيحاً.

ثانياً: تخطئة الكتاب هي استنكار على الكتبة الأوائل و ليست قدحاً
 في نفس الكتاب الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ
 مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.^(٢)

١ - راجع: مقدّمة ابن خلدون: ٤١٩ - ٤٣٨.

٢ - فصلت: ٤٢.

ثالثاً: إن وجود أخطاء ظلت باقية لم تتبدّل، يفيد المسلمين في ناحية احتجاجهم بها على سلامة كتابهم من التحريف عبر القرون. إذ أنّ أخطاء إملائية لا شأن لها، وكان جديراً أن تمدّ إليها يد الإصلاح و مع ذلك بقيت سليمة عن التغيير، تكريماً بمقام السلف فيما كتبوه، فأجدر بنصّ الكتاب العزيز أن يبقى بعيداً عن احتمال التحريف والتبديل رأساً.

نماذج من مخالفات الرسم:

- ١ - ﴿يَأْتِيهِمْ أَنْبُؤًا﴾. ^(١) والصحيح: أنباء.
- ٢ - ﴿يَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾. ^(٢) والصحيح: يَنُتَوْنَ عَنْهُ.
- ٣ - ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ﴾. ^(٣) والصحيح: لِشَيْءٍ.
- ٤ - ﴿أَوَلَا أَدْبَحْتَهُ﴾. ^(٤) والصحيح: لَاذْبَحْتَهُ.
- ٥ - ﴿وَجِئَاءَ النَّبِيِّينَ﴾. ^(٥) والصحيح: وَجِئَاءَ...

٤ - مناقضات في الرسم العثماني: والشيء الأغرب وجود مناقضات في رسم المصحف، بينما الكلمة مثبتة في موضع برسم خاصّ وإذا هي بذاتها مرسومة في موضع آخر بما يخالفها، وإليك نموذجاً من ذلك التناقض الغريب:

١ - الأنعام: ٥.

٢ - الأنعام: ٢٦.

٣ - الكهف: ٢٣.

٤ - النمل: ٢١.

٥ - الزمر: ٦٥.

الكلمة برسمها الصحيح	الكلمة برسمها الملحون
﴿إِذَا لَا تَخْذُوكَ﴾ ^(٢)	١ - ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ﴾ ^(١)
﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ﴾ ^(٤)	٢ - ﴿فَقَالَ الضُّعْفُؤَا﴾ ^(٣)
﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ﴾ ^(٦)	٣ - ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ﴾ ^(٥)
﴿عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ ^(٨)	٤ - ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ ^(٧)
﴿وَقَالَ الْمَلَأُ﴾ ^(١٠)	٥ - ﴿فَقَالَ الْمَلُؤَا﴾ ^(٩)

٥ - اختلاف المصاحف:

كانت الغاية من إرسال المصاحف إلى الآفاق هي وحدة كلمة الأمة، لئلا تختلف و ليجتمع المسلمون على قراءة واحدة و نبذ ما سواها. غير أن الواقعية بدت بوجه آخر و اختلفت المصاحف بعضها مع البعض. الأمر

١ - الكهف: ٧٧.

٢ - الإسراء: ٧٣.

٣ - إبراهيم: ٢١.

٤ - التوبة: ٩١.

٥ - فاطر: ٤٣.

٦ - الفتح: ٢٣.

٧ - فاطر: ٤٠.

٨ - محمد وآل بيته: ١٤.

٩ - المؤمنون: ٢٤.

١٠ - المؤمنون: ٣٣.

الذي يدلّ بوضوح أنّ اللجنة تساهلت في أمر المقابلة - أيضاً - فلم يأخذوا بالدقّة الكاملة في جانب توحيد المصاحف المرسلّة إلى الآفاق. و صار هذا الاختلاف في المصاحف من أهمّ أسباب نشوء الاختلاف القرآني فيما بعد. و من ثمّ ظهرت قراءة مكّة و قراءة المدينة و قراءة البصرة و قراءة الكوفة و قراءة الشام و هكذا... الأمر الذي كان كراً على ما فرّوا منه.

الأسئلة

١. ما هي العلّة الأساسيّة لاختلاف المصاحف؟
٢. أوّل من فكّر في توحيد المصاحف من كان؟ و أي سبب حمّله على ذلك؟
٣. ماذا فعل حذيفة بن اليمان بعد رجوعه من غزو أرمينية؟
٤. ما الدليل على موافقة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لتوحيد المصاحف؟
٥. ما هو موقف الصحابة بالنسبة إلى توحيد المصاحف؟
٦. لماذا خالف ابن مسعود توحيد المصاحف؟
٧. من هم اللجنة التي انتدبها عثمان لتوحيد المصاحف؟
٨. في أيّ سنة وقع توحيد المصاحف؟
٩. ما هي المراحل الأساسيّة التي اختارت اللجنة في عملها لتوحيد المصاحف؟
١٠. هل لجنة توحيد المصاحف حازت على النجاح في عملها؟

١١. كم عدد المصاحف العثمانية؟ و لأيّ بلاد أرسلت؟
١٢. ما هي مميزات المصاحف العثمانية؟
١٣. كيف كان ترتيب المصاحف العثمانية؟
١٤. أول من نقط المصحف من كان؟
١٥. أول من شكّل المصحف من كان؟
١٦. لماذا كانت القراءة في الصدر الأول موقوفة على مجرد السماع؟
١٧. ماذا فعل الخليل بن أحمد الفراهيدي بالنسبة إلى القرآن؟
١٨. من الذي وضع علامات التحزيب و التجزئة؟
١٩. على أيّ حرف ينتصف القرآن؟
٢٠. كم عدد آيات القرآن؟
٢١. ما هي أطول السور في القرآن؟ و ما هي أقصرها؟
٢٢. ما هي أطول آية في القرآن؟ و ما هي أقصرها؟
٢٣. ما هي أطول كلمات القرآن؟
٢٤. ما هي العلة الأساسية في وجود مناقضات في رسم خط القرآن؟
٢٥. لماذا لم يمسوا القرآن بيد إصلاح رسم خطّه؟
٢٦. هل وجود أخطاء إملائية تمس بكرامة القرآن؟ لماذا؟
٢٧. أذكر نموذجاً من مخالقات رسم الخطّ و نموذجاً من المناقضات في الرسم العثماني.
٢٨. ما السبب في حدوث الاختلاف بين المصاحف بعد توحيدها؟

الإنافة والتجويد

لم يزل القرآن - منذ الصدر الأول - في طور التجويد والتحسين ، لا سيما في ناحية كتابته و تجميل خطّه من جميل إلى أجمل . وقد أسهم الخطّاطون الكبار في تجويد خطّ المصاحف و تحسين كتابتها . و أول من تنوّق في كتابة المصحف و تجويد خطّها ، هو خالد بن أبي الهياج - صاحب أمير المؤمنين علي عليه السلام - (م ح ١٠٠ هـ) و كان مشهوراً بجمال خطّه و كمال ذوقه . و يقال : إنّ سعداً - مولى الوليد و حاجبه - اختاره لكتابة المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦) فكان هو الذي خطّ قبلة المسجد النبويّ بالمدينة بالذهب من سورة الشمس إلى آخر القرآن .^(١)

و كان الخطّاطون يكتبون المصاحف بالخطّ الكوفي حتّى أواخر القرن الثالث ثمّ حلّ محلّه خط النسخ الجميل في أوائل القرن الرابع على يد الخطّاط الشهير محمد بن علي بن الحسين بن مقلّة (٢٧٢ - ٣٢٨) . و قد بلغ الخطّ العربي ذروته في الجودة و الحسن في القرن السابع على يد الخطّاط

المستعصمي ياقوت بن عبدالله الموصليّ (م ٦٨٩).

وهكذا صارت المصاحف تكتب على أسلوب خطّ ياقوت حتّى القرن الحادي عشر. و منذ مفتتح القرن الثاني عشر اهتمّ الأتراك العثمانيّون عنايتهم بالخطّ العربي الإسلامي فجعل الخطّ العربي يتطوّر على أيدي الخطّاطين الفرس الذين استخدمهم العثمانيّون في امبراطوريّتهم. وقد نقل السلطان سليم جميع الخطّاطين إلى عاصمته، وأضافوا للخطّ العربيّ أنواعاً جديدة لازالت تستعمل في الكتابات الدارجة كالخطّ الرقعي والخطّ الديواني والخطّ الطغرائي والخطّ الإسلامبولي وغيرها.

أمّا طباعة المصحف الشريف فقد مرّت -ككتابته خطاً- بأطوار التجويد والتحسين. و أوّل دولة إسلاميّة قامت بطبع القرآن، هي إيران^(١). طبعت طبعتين حجريّتين و منقّحتين في حجم كبير مع ترجمة موضوعة تحت كلّ سطر من القرآن و مفهرستين بعدّة فهارس. إحداها كانت في طهران سنة ١٢٣٤هـ والأخرى في تبريز ١٢٤٨هـ.

الأسئلة

١. ماذا فعل خالد بن أبي الهيثاج بالقرآن؟
٢. ماذا فعل ابن مقلة بالقرآن؟
٣. ماذا فعل السلطان سليم بالنسبة إلى خطّ القرآن؟
٤. أيّ دولة إسلامية قامت بطبع القرآن لأوّل مرّة؟

١- الدكتور صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن: ٩٩.

القراءات في نشأتها وتطورها

سبق أنّ الجماعة الذين انتدبهم عثمان لمسألة توحيد المصاحف، لم يكونوا أكفاء لهذا الأمر الخطير، و من ثمّ وقعت في نفس تلك المصاحف أخطاء إملائية و مناقضات و بعض الاختلاف، الأمر الذي أعاد على المسلمين اختلافهم في قراءة القرآن. كان عثمان قد بعث مع كلّ مصحف من يقرئ الناس على الثبت الموحد في تلك المصاحف -على حساب أنّها موحّدة- و كان هؤلاء يقرّئون الناس في كلّ قطر على حسب المصحف المرسل إليهم، و من ثمّ عاد محذور الاختلاف نظراً لوجود اختلاف في ثبت تلك المصاحف، مضافاً إلى عوامل أخرى ساعدت على هذا الاختلاف.^(١) و من هنا نشأ اختلاف قراءة الأمصار بدلاً من اختلاف القراء الذي كان قبل ذلك. فكانوا يقولون: قراءة مكّة، قراءة الشام، قراءة المدينة، قراءة الكوفة، قراءة البصرة، و هكذا.

عوامل نشوء الاختلاف

لا شك أنّ اختلاف مصاحف الأمصار كان أهمّ عوامل نشوء الاختلاف القرآني. وهناك - أيضاً - عوامل أخرى ساعدت على هذا الاختلاف نذكر منها ما يلي:

١ - بدءا الخطّ: كان الخطّ عند العرب في ذلك الزمان في مرحلة بدائيّة، ومن ثمّ لم تستحكم أصوله ولم تتعرّف العرب إلى فنونه والابتقان من رسمه وكتابته الصحيحة، وكثيراً ما كانت الكلمة تكتب على غير قياس النطق بها. كانوا يكتبون الكلمة وفيها تشابه واحتمال وجوه، فالنون الأخيرة كانت تكتب بشكل لا يفترق عن الراء وكذا الواو عن الياء. كما ربّما كانوا يفكّكون بين حروف كلمة واحدة فيكتبون الياء منفصلة عنها كما في «يَسْتَحْيِي» أو يحذفونها رأساً كما في «إِيلَافِهِمْ» كتبوها «إِلَافِهِمْ» بلا ياء. الأمر الذي أشكل على بعض القراء واختلف القراءات. ولذلك قرأ بعضهم: «لِيلَافٍ قَرِيشٍ» بحذف الهمزة وإثبات الياء. و «إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ» بإثبات الهمزة وحذف الياء. و قرأ بعضهم «أَلْفِهِمْ» بالهمزة وسكون اللام.

٢ - الخلوّ عن النقط: كان الحرف المعجم يكتب كالحرف المهمل بلا نقط فلا يفرّق بين السين والشين في الكتاب ولا بين العين والغين أو الراء والزاي... فكان على القارئ نفسه أن يميّز بحسب القرائن الموجودة أنّها باء أو ياء...

من ذلك قراءة ابن عامر و حفص: «وَيُكْفِّرُ عَنْكُمْ»^(١) و قرأ الباقر: «نُكْفِّرُ».

٣- التجريد عن الشكل: كانت الكلمة تكتب عارية عن علائم الحركات القياسية في وزنها و في إعرابها و ربّما يختار القارئ في وزن الكلمة و في حركتها فيما إذا كانت الكلمة محتملة لوجوه، مثلاً: لم يكن يدرى «اعلم» أمر أم فعل مضارع متكلم. قرأ حمزة و الكسائي: «قَالَ اَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(٢) بصيغه الأمر و قرأ الباقر بصيغة المتكلم.

٤- إسقاط الألفات: كان الخطّ العربيّ الكوفيّ منحدرًا عن خطّ السريان و كانوا لا يكتبون الألفات الممدودة في ثنایا الكلم، و قد كتبوا القرآن بالخطّ الكوفي على نفس المنهج. الأمر الذي أوقع الاشتباه في كثير من الكلمات. قرأ نافع و أبو عمرو و ابن كثير: «وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ»^(٣) نظراً إلى أَنَّ يُخَادِعُونَ في صدر الآية قد كتب بلا ألف فزعموها من باب واحد.

أضف إلى ذلك بعض الزيادات المخلة بالمقصود إذا لم يكن القارئ عارفاً بأصل النصّ من سماع خارج. كما في قوله تعالى: «لَا تُعَذِّبُهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا تُدَبِّحْهُ»^(٤). فزادوا ألفاً أثناء كلمة واحدة فربّما يحسب القارئ

١- البقرة: ٢٧١.

٢- البقرة: ٢٥٩.

٣- البقرة: ٩.

٤- النمل: ٢١.

الجاهل بالواقع أنها لا النافية في حين أنها لام تأكيد والهمزة حرف المتكلم والألف زائدة.

٥ - تأثير اللهجة: لا شك أن كل أمة - وإن كانت ذات لغة واحدة - فإن لهجاتها تختلف حسب تعدد القبائل المنسوبة. وهكذا كانت القبائل العربية تختلف مع بعضها في اللهجة وفي التعبير والأداء. من ذلك اختلافهم في الحركات، مثل «نستعين» - بفتح النون وكسرها - قال الفراء: هي مفتوحة في لغة قيس وأسد. وغيرهم يقولونها بكسر النون.^(١) واختلافهم في الحركة والسكون، مثل قولهم: «معكم» بفتح العين وسكونها. واختلافهم في الإعراب نحو «ما» النافية، فإنها غير عاملة عند تميم و عاملة عمل ليس عند الحجازيين. وغير تلك من موارد الاختلاف.

٦ - تحكيم الرأي والاجتهاد: هذا أكبر العوامل تأثيراً في اختيارات القراء، كان لكل قارئ رأي يعتمد في القراءة التي يختارها وكانوا - أحياناً - مستبدين بأرائهم ولو خالفهم الجمهور أو أهل التحقيق. قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «فَلَارَقَتْ وَلَا قُسُوقَ»^(٢) بالتنوين والرفع. وقرأ الباقر بالفتح من غير تنوين. قال مكّي: وجه القراءة الأولى: أن «لا» بمعنى «ليس» والخبر محذوف. ووجه الثانية: أن «لا» نفي للجنس دلالة على النفي العام. لأن التي بمعنى ليس لا تنفي إلا واحدة والمقصود في الآية العموم.^(٣)

١ - أنظر كتاب سيبويه: ٢٥٧/٢.

٢ - البقرة: ١٩٧.

٣ - الكشف عن وجوه القراءات السبع: ٢٨٥ - ٢٨٦.

٧- غلّو في الأدب: من العوامل التي كانت تبعث على اختيار قراءة -و لو كانت شاذة خارجة على المشهور أو مخالفة لرسم الخطّ - هو غلّو القارئ فيما اختصّ به من الأدب العربي معجباً بنفسه فيزعم الصحيح فيما رآه، وفقاً للقواعد العربية التي تسلّمها كليات لا ينخر من بوجه. من ذلك ما نجده في أبي بكر العطار المقرئ النحوي (٢٦٥ - ٣٥٥). كان أعلم دهره بالنحو والقراءة و من ثمّ لم يكن يتوجّه بالمأثور من القراءات و كان يختار لنفسه قراءة يراها صحيحة و مناسبة في سياق معنى الآية في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتِئْذِنُوا مِنْهُ خُلَصُوا نَجِيًّا﴾^(١). قرأ «نَجِيًّا»^(٢) جمع «نجيب». فكان مآل أمره أن ثارت عليه ضجة الفقهاء و حاكمه الأمير، فلم يستطع الدّفاع فأراد ضربه لكنّه استسلم أخيراً فاستتيب^(٣).

٨- شذوذ نفسي: و هو ما يرجع إلى عللٍ رويّة، يروم أصحابها الاشتهار بمخالفة المشهور، أو عُقْدِ نفسيّة تنفجر في وجه الأعراف التقليديّة، فتتمثل في قالب الاختيارات الشاذّة. كما ذكرنا في أبي بكر العطار.

٩- عوامل أخرى: زعموها ذات صلة بتكييف قراءة القرآن أو اختيار قراءة غير قراءة الآخرين:

١- يوسف: ٨٠.

٢- إعجاز القرآن للرافعي: ٥٧.

٣- النشر: ١٧/١.

أ. زعم خطأ النسخة: زعم بعضهم في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾^(١).
أنها كانت «وَوَصَّىٰ رَبُّكَ» فاستمد الكاتب مداداً كثيراً فالتزقت الواو
بالضاد.^(٢)

ب. تخليط التفسير بالنص: كأكثر القراءات المنسوبة إلى ابن مسعود و
أبي بن كعب وغيرهما، مما فيها زيادة -تفسيرية- نحو قوله تعالى: ﴿كَانَ
النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [فاختلفوا] فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ
مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فِيهِ اخْتَلَفُوا فِيهِ^(٣). هذه الزيادة ترفع إبهاماً عن الآية:
هل كانت بعثة الأنبياء سبباً للاختلاف، أم كان العكس؟ و ذيل الآية يعين
هذا الأخير. وجاءت الزيادة توضح هذا الجانب أكثر. وربما جاء قارئ
متأخر فزعمها قراءة خاصة.

ج. أهداف سياسية: قرأ ابن الخطّاب: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ
الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ - بِالرَّفْعِ - الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾^(٤) - بإسقاط
الواو-. كان يعتقد اختصاص المهاجرين بالسابقة وأن فضل الأنصار في
متابعتهم. وبذلك صرح لمن أنكر عليه قراءته هذه.^(٥)

١- الإسراء: ٢٣.

٢- الإتيان: ١ / ١٨٠. والدر المنثور: ٧ / ١٧٠.

٣- البقرة: ٢١٣.

٤- التوبة: ١٠٠.

٥- أنظر: تفسير الطبري: ٧ / ١١.

د. نظرات كلامية: قرأ بعض المعتزلة: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(١) بنصب لفظ الجلالة،^(٢) زاعماً أنه تعالى لا يتكلم على حقيقته.

هـ. عدم معرفة القاري بقواعد اللغة والأدب: فربما يلحن في قراءة القرآن و يعدّ ذلك قراءة، نظراً لموقعه الاجتماعي المعروف، كقراءات منسوبة إلى أبي حنيفة - وهو مشهور باللحن في كلامه - يحكى عنه: أنه قرأ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ - بِالرَّفْعِ - مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ - بالنصب -﴾^(٣) و تنسب إلى عمر بن عبد العزيز - أيضاً -^(٤) و ربما توجه بأن معنى الخشية - في هذه القراءة - هو التعظيم والتكريم. و هي محاولة لتوجيه قراءة شاذة.^(٥)

و القراءات من هذا القبيل ساقطة رأساً. والمراد من القراءة في موضوع بحثنا هي التي تبتني على اجتهاد صاحبها، و لو عن خطأ في استنباطه يراه صحيحاً في نظره.

أنواع اختلاف القراءات

قال ابن قتيبة: قد تدبّرت وجوه الخلاف في القراءات فوجدتها سبعة أوجه:

١ - النساء: ١٦٤.

٢ - الإشارات للقسطلاني: ٦٦/١.

٣ - فاطر: ٢٨.

٤ - راجع: القرطبي: ٣٤٤/١٤.

٥ - أنظر: البرهان: ٣٤١/١.

الأول: الاختلاف في إعراب الكلمة، أو في حركة بنائها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتاب ولا يغير معناها... نحو قوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾^(١) - بضمّ الباء و سكون الخاء - و «البخل» - بفتح الباء والحاء -^(٢).

الثاني: أن يكون الاختلاف في إعراب الكلمة و حركات بنائها بما يغير معناها، و لا يزيلها عن صورتها في الكتاب. نحو قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾^(٣) - بتشديد القاف - و «تلقّونه» - بالتخفيف -^(٤).

الثالث: أن يكون الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها، بما يغير معناها و لا يزيل صورتها، نحو قوله تعالى: ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾^(٥) و «ننشئها»^(٦).

الرابع: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتاب، و لا يغير معناها، نحو قوله تعالى: ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾^(٧) و «كالصّوف المنفوش»^(٨).

١ - النساء: ٣٧.

٢ - هي قراءة حمزة والكسائي. والأولى قراءة الباقيين. الإتحاف: ص ٣٥٩.

٣ - النور: ١٥.

٤ - الثانية قراءة ابن السميّع. القرطبي: ١٢ / ٢٠٤. والقراءات الشاذة: ١٠٠.

٥ - البقرة: ٢٥٩.

٦ - الأولى قراءة ابن عامر وعاصم و حمزة والكسائي، والثانية قراءة الباقيين. الإتحاف: ص ١٦٢.

٧ - القارعة: ٥.

٨ - الثانية قراءة ابن مسعود. الكشف: ٢ / ٥٥٨.

- الخامس: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها و معناها،
 نحو قوله تعالى: ﴿طَلَحَ مَنْضُودٌ﴾^(١) و «طَلَعَ مَنْضُودٌ»^(٢).
 السادس: أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير، نحو قوله تعالى:
 ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾^(٣) «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ»^(٤).
 السابع: أن يكون الاختلاف بالزياده والنقصان، نحو قوله تعالى:
 ﴿وَمَاعَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾^(٥) و «مَاعَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ»^(٦).

الأسئلة

١. ما هي عوامل نشوء الاختلاف في القراءات؟
٢. ما هو تأثير بداءة الخط في اختلاف القراءات؟
٣. ما هو تأثير الخلو عن النقط والتجريد عن الشكل في اختلاف القراءات؟
٤. كيف أثر إسقاط الألفات في اختلاف القراءات؟

١- الواقعة: ٢٩.

٢- الثانية منسوبة إلى أمير المؤمنين عليه السلام. القراءات الشاذة: ١٥١. وراجع: تفسير القرطبي: ٢٠٨/١٧.

٣- ق: ١٩.

٤- الثانية قراه أبي بكر عند محضرته الوفاة في قصّة مع ابنته عائشة. راجع: القرطبي: ج ١٧،

ص ١٢-١٣. والقراءات الشاذة: ص ١٤٤.

٥- يس: ٣٥.

٦- الثانية في مصاحف أهل الكوفة. راجع: الكشف: ٢٥٢/٢.

٥. هل يكون للّهجة أثر في اختلاف القراءة؟
٦. ما هو أكبر العوامل في اختيار القراءة؟
٧. ما المراد من الغلو في الأدب و كيف كان أثره في اختلاف القراءات؟
٨. أذكر آية أثّر في قراءتها زعم خطأ النسخة.
٩. كيف أثّر تخليط التفسير بالنص في اختلاف القراءات؟
١٠. هل هناك دور لأغراض سياسية في اختلاف القراءات؟
١١. أذكر آية قد أثّرت في قراءتها آراء كلامية.
١٢. ما هي علّة اختلاف القراءة في قوله تعالى: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء»؟
١٣. أذكر وجوه الخلاف في القراءة من جهة إعراب الكلمة أو حركة بنائها، مع ذكر المثال.
١٤. أذكر وجوه الخلاف في القراءة من جهة حروف الكلمة دون إعرابها، مع ذكر المثال.
١٥. أذكر وجوه الخلاف في القراءة من حيث التقديم و التأخير والزيادة والنقصان، مع ذكر المثال.

تواتر القراءات

التواتر مصطلح في «معرفة الحديث» حيث يقسم إلى متواتر و مشهور و مستفيض و آحاد و...

والحديث المتواتر: ما بلغ رجال سنده في جميع الطبقات حدًّا في الكثرة والانتشار، بحيث يؤمن - قطعياً - تواطؤهم على الكذب. و من ثمّ يجب في الحديث المتواتر توفر الشروط التالية:

١ - اتصال الإسناد من الراوي الأخير إلى مصدر الحديث اتصالاً تامّاً.

٢ - بلوغ عدد الرواة والناقلين حدًّا من الكثرة والانتشار - فوق لاستفاضة والاشتهار - بما يؤمن تواطؤهم على الكذب.

٣ - أن يحتفظ بنفس الحجم من كثرة النقلة في كلّ طبقة، فالكثرة تنقل عن الكثرة وهكذا إلى المصدر الأوّل.

ومسألة تواتر القراءات - إن تسلّمناه - إنّها متواترة عن القراء أنفسهم، أمّا من قبلهم فإلى طبقة الصحابة و عهد رسول الله ﷺ فلا تعدو

أخباراً آحاداً لو كان هناك إسناد، وإلا فالأمر أفضح. هذا عبدالله بن كثير - ثاني القراء قرباً إلى عهد الصحابة - (م ١٢٠) لم يذكر في رجاله سوى ثلاثة. وكذا عاصم بن أبي النجود - ثالث القراء قرباً - (م ١٢٨) رجاله اثنان. و أبعد القراء - زماناً - بعهد الصحابة هو الكسائي (م ١٨٩) ذكروا له ثلاثة رجال. نعم ذكروا لنافع خمسة رجال و لحمزة سبعة و لأبي عمرو اثني عشر و ذلك أيضاً لايثبت التواتر لأنها آحاد في مصطلح الفن كما لا يخفى.

هذا مع الغض عن الخدشة في رجال هذه الأسانيد ممن ليس له صلاحية الإقراء أو ليس من شأنهم التصدي لإقراء الناس. مثلاً ذكروا من شيوخ حمزة، الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام. لكن مقام إمامته الكبرى تشغله عن التصدي لهكذا أمور صغيرة كما لم نر أثراً من قراءة الإمام عليه السلام في قراءة حمزة ولا هو نسبها إلى الإمام عليه السلام.

و أيضاً أنه يجب في التواتر استواء الطرفين والواسطة في عدد الرجال الناقلين في حين أن النقل المتواتر المتأخر عن القاري ينتهي إليه وحده. و من ثم قال سيدنا الأستاذ الإمام الخنوي رحمته الله: «اتصال أسانيد القراءات بالقراء أنفسهم يقطع تواتر الأسانيد، حتى لو كان رواها في جميع الطبقات ممن يمتنع تواطؤهم على الكذب، فإن كل قارئ ينقل قراءته بنفسه»^(١).

أدلة عدم تواتر القراءات

١ - إنكارات على القراء: أقوى دليل يرشدنا إلى عدم اعتراف أئمة السلف بتواتر القراءات، إنكاراتهم على قراءات كثير من المشهورين، حتى السبعة. وكيف يجراً مسلم محافظ أن ينكر قراءة يرى تواترها عن النبي ﷺ؟ فإن ذلك يدل على أن ما أنكروه شيء منسوب إلى نفس القراء، إنكاراً عليهم لا إنكاراً لشيء ثبت عن رسول الله ﷺ قطعياً. تدل على ذلك التعليقات الواردة في هذه المناسبات تبريراً للإنكارات المزبورة. هذا أحمد بن حنبل كان ينكر على حمزة كثيراً من قراءاته وكان يكره أن يصلّي خلف من يقرأ بقراءة حمزة^(١). وقد أنكر أئمة النحو والأدب كثيراً من قراءات القراء الكبار. كما أنكر المبرد قراءة أهل المدينة: «هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم»^(٢). - بنصب أطهر - وقال: «هو لحن فاحش، إنما هي قراءة ابن مروان ولم يكن له علم بالعربية»^(٣).

أضف إلى ذلك إنكارات العامة على الكثير من قراءات السبعة وربما كانوا يضطرونهم إلى النزول وفق الرأي العام، مما يدل على أنّ اختيارهم الأوّل كان عن اجتهادٍ لا غير. قال ابن مجاهد: قال لي قبل (أحد راويي ابن كثير): قال القواس في سنة ٢٣٧: إلق هذا الرجل (يعني البرقي، الراوي الآخر لابن كثير) فقل له: هذا الحرف ليس من قراءتنا - يعني: «وما

١ - مناهل العرفان: ١/ ٤٥٢ عن منجد المقرئين لابن الجزري.

٢ - هود: ٧٨.

٣ - المقتضب ١٠٥/٤.

هُوَ بِمَكِّيٍّ»^(١) مخفّفاً. وإِنَّمَا يَخَفُّفُ مِنَ الْمَكِّيِّ مَنْ قَدْ مَاتَ، وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَمُتْ فَهُوَ مُشَدَّدٌ فَلَقِيَتْ الْبَرْزِيُّ فَأَخْبَرَتْهُ فَقَالَ: «قَدْ رَجَعْتَ عَنْهُ»^(٢).

٢- قراءات شاذة من السبعة: لدينا -مضافة إلى ما سبق- قراءات من السبعة رميت بالشذوذ لمخالفتها القياس أو وقوعها موضع إنكار عامة المسلمين، مما يدلّ على أنّها اختيارات اجتهادية رآها أصحابها، خطأ أو لقلّة المعرفة بمقاييس الكلام الصحيح و من ثمّ رفضها الأئمّة المحقّقون و الحقاظ الضابطون فاتّسمت بالشذوذ. و منع الفقهاء من القراءة بها في الصلاة أو في غيرها بسمة كونها قرآناً.

من ذلك قراءة حمزة: «مَكْرُ السَّيِّءِ»^(٣) بإسكان الهمزة في الوصل^(٤). وقراءة نافع و ابن كثير و ابن عامر «لَيْكَةً»^(٥) بلام مفتوحة من غير همز بعدها و لا الف قبلها و فتح التاء و قرأ الباقر «الْأَيْكَةَ» بالالف واللام مع الهمزة و خفض التاء^(٦). و أمثال هذه القراءات كثير يجدها الباحث في كتب القراءات.

٣- تعاليل و حجج اجتهادية: ذكر أبو محمّد مكّي بن أبي طالب في

١- إبراهيم: ١٧.

٢- مناهل العرفان: ١/٤٥٢ عن منجد المقرئين لابن الجزري.

٣- فاطر: ٤٣.

٤- التيسير: ١٨٢.

٥- الشعراء: ١٧٦.

٦- الاتحاف: ٣٣٣.

كتابه الكبير «الكشف عن وجوه القراءات السبع» حججاً و تعاليل لمختلف القراءات بصورة مستوعبة كان اعتمدها القراء في اختياراتهم، كلّ حسب اجتهاده الخاصّ وملاحظته الخاصّة من غير اعتبار نقل أو سماع:

منها قوله تعالى: ﴿آيَاتٌ لِلنَّاسِ لِيَذْكُرُوا﴾^(١) قرأه ابن كثير بالتوحيد: «آيَةُ لِلنَّاسِ لِيَذْكُرُوا» جعل شأن يوسف عليه السلام آية واحدة على الجملة وإن كان في التفصيل آيات كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾^(٢) فوحد وإن كان شأنهما التفصيل. وقرأ الباقر بالجمع، لاختلاف أحوال يوسف، ولانتقاله من حال إلى حال في كلّ حالة جرت عليه آية، فجمع لذلك. قال أبو محمد: «وهو الاختيار لأن الجماعة عليه».^(٣)

و منها قوله: ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾^(٤) قرأ نافع وأهل الكوفة بفتح اللام مبنياً للمفعول، لأن الله أخلصهم أي اختارهم لعبادته، وقرأ الباقر بكسر اللام مبنياً للفاعل، لأنّهم أخلصوا أنفسهم للعبادة. قال أبو محمد: «وفتح اللام أحبّ إليّ، لأنّهم لم يخلصوا أنفسهم لعبادة الله إلّا من بعد أن اختارهم الله لذلك وأخلصهم».^(٥)

٤ - تناقض في القراءات: في القراءات المضبوطة عن أئمة

١ - يوسف: ٧.

٢ - المؤمنون: ٥٠.

٣ - الكشف عن وجوه القراءات السبع: ٥ / ٢.

٤ - يوسف: ٢٤.

٥ - الكشف عن وجوه القراءات السبع: ٩ / ٢ - ١٠.

القرّاء - السبعة و غيرهم - كثير من مناقضات لا تجتمع على معنى واحد. الأمر الذي يتنافى مع نصّ الوحي الذي لا يحتمل اختلافاً أصلاً، «وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا»^(١) هذا هو المقياس لمعرفة وحي السماء و من ثم لا يصحّ إسناد هذا الاختلاف إلى النبي ﷺ.

من ذلك: اختلافهم في قراءة: «أَوْ لَمْ يَسْتُمْ»^(٢). قرأ حمزة والكسائي: «أَوْ لَمْ يَسْتُمْ» والباقون «أَوْ لَمْ يَسْتُمْ». و قد بنى الفقهاء نقض وضوء اللامس و عدمه على هذا الاختلاف.

و كذلك اختلافهم في جواز وطء الحائض عند انقطاع الدم و عدمه قبل الاغتسال ينظر إلى اختلاف القراءة في: «حَتَّى يَطْهُرْنَ»^(٣). قرأ حمزة والكسائي بالتشديد، والباقون بالتخفيف.

٥ - عدم الملازمة بين تواتر القرآن و تواتر القراءات: قال القاضي أبو سعيد فرج بن لبّ الأندلسي: «من زعم أنّ القراءات السبع لا يلزم فيها التواتر فقله كفر، لأنّه يؤدّي إلى عدم تواتر القرآن»^(٤) و لم يوافقه عليه أحد من المحققين، نظراً إلى عدم تلازم بين الأمرين.

قال سيّدنا الأستاذ الإمام الخوئي رحمه الله: «إنّ تواتر القرآن لا يستلزم تواتر القراءات، لأنّ الاختلاف في كَيْفِيَّةِ تعبير الكلمة لا ينافي الاتفاق في أصلها،

١- النساء: ٨٢.

٢- النساء: ٤٣.

٣- البقرة: ٢٢٢.

٤- مناهل العرفان: ٤٣٥/١.

كما أنّ الاختلاف في خصوصيّات حدث تاريخي - كالهجرة مثلاً - لا ينافي تواتر نفس الحدث، على أنّ الواصل إلينا بتوسّط القراء إنّما هو خصوصيّات قراءاتهم، و أمّا أصل القرآن فهو واصل إلينا بالتواتر بين المسلمين، و بنقل الخلف عن السلف، و تحفّظهم عليه في الصدور و في الكتابات، و لا دخل للقراء - بخصوصهم - في ذلك أصلاً. و لذلك فإنّ القرآن ثابت التواتر حتّى لو فرضنا أنّ هؤلاء القراء السبعة أو العشرة لم يكونوا في عالم الوجود أصلاً. إنّ عظمة القرآن و رفعة مقامه أعلى من أن تتوقف على نقل أولئك النفّر المحصورين»^(١).

لا شكّ أنّ القرآن - و هو نصّ الوحي الإلهي الحكيم - متواتر بين المسلمين تواتراً قطعياً في جميع سوره و آياته و كلماته، بحيث لو أبدلنا كلمة من القرآن أو نقلناها من مكانها إلى مكان آخر لاستنكرها المسلمون و وجدوها شيئاً غريباً عن أسلوب كلام الله العزيز الحميد. و من ثمّ فإنّ القراءات التي كانت لا توافق نصّ المصحف، كانت مستنكرة لدى المسلمين، العامّة والعلماء، و عدّوها شاذّة منبوذة، كما تقدّم في الفصل السابق. و ستأتي - في فصل اختيار القراءة الصحيحة - شروط التعرّف إلى القرآن المتواتر، المتسالم لدى عامّة المسلمين.

سؤال: إنّ القراءات إذا لم تكن متواترة جميعاً فإنّ القرآن يصبح في بعض آيه - و هو الذي اختلفت القراءة فيه - غير متواتر، كما في «مالك» و

قد قرئ بالوجهين، فأيهما النص؟ وقد استدلل ابن المحاجب - في مختصر أصوله - بذلك لإثبات تواتر القراءات السبعة. (١)

جواب: إن النص الأصلي هو ما ثبت في المصحف الكريم، والذي أجمعت الأمة عليه نصاً واحداً. وإنما جاء الاختلاف في كيفية قراءته و في أسلوب تعبيره، الأمر الذي لا يتنافى مع ثبوت تواتر الأصل، كما في كثير من أشعار الشعراء القدماء، حيث إن أصل البيت أو القصيدة ثابتة له بالتواتر وإن كان الرواة مختلفين في بعض الكلمات أو الحركات. مضافاً إلى أن اختلاف القراءة - كما تقدّم - كان عن اجتهاد منهم في تحقيق الكلمة تعبيراً، في حين وحدة النص الثابت في المصحف، وذلك لأن اختلافهم جاء من قبل خلوّ المصحف الأوّل عن أيّ علامة مائزة و عن الأشكال والنقط، بل و عن الألفات، و ربّما زيادات خارجة عن أسلوب الخطّ الصحيح، لمكان جهل العرب الأوائل بأصول الكتابة المتقنة. فلا يضرّ اختلاف القراءة بوحدة النصّ الأصل، الثابت في المصحف الأوّل، ممّا تسالمت عليه الأمة عبر التاريخ. وقد أخرج ابن أشته في كتاب «المصاحف»، وابن أبي شيبة في «فضائل القرآن»، من طريق ابن سيرين عن عبيدة السلماني، قال: «القراءة التي عرضت على النبي ﷺ في العام الذي قبض فيه، هي القراءة التي يقرؤها الناس اليوم». (٢)

و إلى ذلك - أيضاً - أشار الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «القرآن

١ - نقلاً عن البيان: ١٧٤.

٢ - الإبتقان: ١/ ٥٠.

واحد نزل من عند واحد ولكن الاختلاف يجيء من قبل الرواة»^(١).
سؤال: إذا اختلفت القراءة في نصّ واحد فمن أين يعرف النصّ الأصل بعد احتمال الخطأ لكلتا القرائتين؟

جواب: سنشرح - في فصل قادم - شروط اختيار القراءة الصحيحة الموافقة للنصّ الأصل، وهي القراءة المشهورة المعروفة بين الناس التي تلقّتها الأمة بالقبول في جميع أدوارها. ومن ثمّ فإنّ القراءات التي كانت تخرج عن محدودة العرف العامّ كانت تقع بموضع إنكارهم.
سؤال آخر: هل لا يقدح اختلاف مصاحف الأمصار الأوّلية - على ما شرحنا - في تواتر النصّ الأصل الواحد؟

جواب: كلّاً، فإنّ الثبت الأصل - أيضاً - من بين تلك المصاحف، هو ما اجمعت عليه الأمة و وقع موضع اتّفاقهم، و شاع و ذاع طول التاريخ و كان ثبت غيره في سائر المصاحف مهجوراً، و من ثمّ فهو شاذّ منبوذ. مثلاً: اختلف مصحف الشام مع مصحف الكوفة، فكان ثبت الشام: «و أوصى بها إبراهيم» و كان ثبت الكوفة: «و وصّى بها إبراهيم»^(٢) لكن الأمة اعترفت بالثاني و نبذت الأوّل. و هو دليل قاطع على أنّ الصحيح هو ذاك دون الآخر. و من ثمّ لا تجوز القراءة وفق المأثور عن مصحف الشام في خصوص هذه الآية.

٦- لا صلة بين حديث الأحرف السبعة والقراءات السبعة: لم نجد من

١- الكافي: ٢/ ٦٣١.

٢- البقرة: ١٣٢.

علماء الفن من يرى أي صلة بين حديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف» و«القراءات السبعة» المعروفة. نعم، تداول على السنة العوام، من غير مستند معروف، وقد ردّ على هذه الزعومة الشائعة كثير من الأئمة النقاد، كابن الجزري وأبي شامة والزركشي وأبي محمد مكّي وابن تيمية وأضرابهم.

قال ابن تيمية: «لأنزاع بين العلماء المعبرين أنّ الأحرف السبعة التي ذكر النبي ﷺ أنّ القرآن أنزل عليها، ليست قراءات القراء السبعة المشهورة، بل أول من جمع ذلك ابن مجاهد، ليكون ذلك موافقاً لعدد الأحرف التي أنزل عليها القرآن لا لاعتقاده واعتقاد غيره من العلماء: أنّ القراءات السبعة هي الحروف السبعة، أو أنّ هؤلاء السبعة المعيّنين هم الذين لا يجوز أن يقرأ بغير قراءتهم»^(١).

ويزيد هذا الوهم شناعة: أنّه يستدعي أن تبقى الأحرف السبعة - التي أجاز النبي ﷺ قراءتها في المفروض - مجهولة حتى يجيء من القراء هؤلاء السبعة بالخصوص في عصور متأخرة تدريجياً ثم تبقى الأحرف السبعة التي أجازها النبي ﷺ لجميع الأمة في احتكار سبعة من القراء فقط. في حين وجود قراء، هم أكبر من هؤلاء السبعة قدراً وأعظم شأنًا فلم تسعهم الأحرف السبعة، وكان النبي ﷺ أوصى إلى ابن مجاهد الذي جاء في مطلع القرن الرابع، ليخصّص هؤلاء فقط بتلك الأحرف ويحرم الآخرين، سواء السابقين واللاحقين.

الأسئلة

١. ما معنى التواتر في الاصطلاح؟ وما المراد من تواتر القراءات؟
٢. أذكر شروط تواتر الحديث.
٣. أذكر الأدلة على عدم تواتر القراءات.
٤. ما هو رأي الإمام الخوئي رحمته الله في تواتر القراءات؟
٥. ما هو أقوى دليل على عدم اعتراف علماء السلف بتواتر القراءات؟
٦. هل في القراءات السبعة قراءة شاذة؟
٧. أذكر كلام الإمام الخوئي رحمته الله في عدم الملازمة بين تواتر القرآن و تواتر القراءات.
٨. هل القول بعدم تواتر القراءات يستلزم عدم تواتر القرآن في بعض آياته؟ بيّن ذلك.
٩. هل اختلاف مصاحف الأمصار الأولية يقدح في تواتر النصّ الأصل الواحد؟
١٠. هل هناك علاقة بين حديث الأحرف السبعة و قراءة القراء السبعة؟

حديث الأحرف السبعة

أحاديث «نزل القرآن على سبعة أحرف» على أربع طوائف:
الطائفة الأولى: الأحاديث النازلة إلى اللهجات العربية: منها: ما روى أبو جعفر الصدوق، بسند - فيه أحمد بن هلال و هو غال متهم في دينه - عن رسول الله ﷺ قال: «أتاني آتٍ من الله فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد». فقلت: «يارب! وسع على أمتي»، فقال: «إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف».^(١)

ومنها: ما روى البخاري و مسلم عن النبي ﷺ قال: «أقرأني جبرئيل ﷺ على حرف واحد، فراجعته فلم أزل أستزيده و يزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف».^(٢) والأحرف في هذين الحديثين هي اللهجات العربية. و يؤيد هذا المعنى ما روى عن أبي بن كعب قال: «إن النبي ﷺ لقي

١- الخصال: ٣٥٨/٢، أبواب السبعة، ح ٤٣.

٢- صحيح البخاري: ٢٢٧/٦، و صحيح مسلم: ٢٠٢/٢.

جبرئيل فقال له: إني بعثت إلى أمة أميين، منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط. قال: يا محمد: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف»^(١).

الطائفة الثانية: الأحاديث النازلة إلى جواز تبديل الكلمة إلى مرادفتها: منها: ما روي عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبي إني أقرئت القرآن على حرف و حرفين و ثلاث حتى بلغت سبعة أحرف. ثم قال: ليس منها إلا شافٍ كافٍ، إن قلت سمياً علياً: عزيزاً حكماً، ما لم تختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب»^(٢).

الطائفة الثالثة: الأحاديث النازلة إلى البطون: منها: ما روى أبو جعفر الصدوق، بسند فيه محمد بن يحيى الصيرفي وهو مجهول - عن حماد بن عثمان عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «إن القرآن نزل على سبعة أحرف، وأدنى ما للإمام أن يفتي على سبعة وجوه»^(٣). فسّر العلماء الأحرف في هذا الحديث بمعنى بطون، أي: كل آية تحتمل وجوهاً من المعنى، وإن كانت ربما تخفى على العامة، لكن الإمام المعصوم عليه السلام يعرفها، فيفتي عليها.

و من طريق العامة روي عن عبدالله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف، لكل منها ظهر و بطن، و

١- الترمذي: ١٩٤/٥، ح ٢٩٤٤.

٢- سنن أبي داود: ١٠٢/٢.

٣- الخصال: ٣٥٨/٢، أبواب السبعة، ح ٤٣.

لكل حرف حدّ، و لكل حدّ مطلع»^(١).

الطائفة الرابعة: الأحاديث النازلة إلى تنوع الآيات إلى أبواب سبعة: منها: ما روى أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النعماني -مرسلاً- عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: «أنزل القرآن على سبعة أقسام، كل منها شافٍ كافٍ، وهي: أمر و زجر و ترغيب و ترهيب و جدل و مثل و قصص»^(٢). هذا الحديث تفسير للأحرف السبعة بفنون من الكلام اشتمل عليها القرآن الكريم كما جاء التصريح به أيضاً في حديث أبي قلابة، قال: بلغني أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف: أمر و زجر و ترغيب و ترهيب و جدل و قصص و مثل»^(٣).

والكثرة مع الطائفة الأولى، وإليها انصرف نظر العلماء، بشأن الأحرف السبعة التي أجاز النبي صلى الله عليه وآله قراءة القرآن بها، أمّا الطوائف الأخر فشاذاة أو باطلة رفضها أئمة التحقيق. و نحن نتكلم الآن في كل طائفة إجمالاً:

أما الطائفة الأولى -و تعني اختلاف اللهجات- فتوسعة على الأمة في قراءة القرآن، فإن البدوي لا يستطيع النطق بالحضري، و لا الأمي يتمكن في تعبيره كالمتقف الفاضل، و لا الصغير كالكبير، و لا الشيخ كالشاب،

١- تفسير الطبري: ٩/١.

٢- رسالة النعماني في صنوف آي القرآن، و نسبت -أيضاً- إلى سعد بن عبد الله الأشعري والشريف المرتضى. راجع: بحار الأنوار: ٩٣/٤ و ٩٧.

٣- تفسير الطبري: ٢٣/١.

فضلاً عن اختلاف لهجات القبائل في تعبير كلمة واحدة، بما تعجز كل قبيلة عن النطق بغير ما تعودت عليه في حياتها. وهكذا اختلاف أمم غير عربيّة في القدرة على النطق بالألفاظ العربيّة، فلو كانت الأُمّة الإسلاميّة - على مختلف شعوبها - مكلفة بالنطق على حدّ سواء، لكان ذلك من التكليف بغير المستطاع، و «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا»^(١). فرخص النبي ﷺ لأُمّته أن يقرأوا القرآن على سبعة أحرف، على اختلاف لهجاتهم، لا يكلّفون لهجة خاصّة هم عاجزون عنها. وقد روى الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام عن آبائه عليه السلام عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الرَّجُلَ الْأَعْجَمِيَّ مَنْ أُمِّي لِيَقْرَأَ الْقُرْآنَ بِعَجْمِيَّتِهِ، فَتَرْفَعَهُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى عَرَبِيَّتِهِ»^(٢). فالهذلي يقرأ: «عَتَى حَيْنٍ» يريد «حَتَّى حَيْنٍ»^(٣)، لأنّه هكذا يلفظ بها ويستعملها. والأسدي يقرأ: تَعْلَمُونَ وَتَعْلَم - بكسر تاء المضارعة - و «تَسْوَدُّ وَجُوهُ»^(٤) - بكسر التاء - و «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ»^(٥) بكسر الهمز في أعهد. ولو أن كلّ فريق من هؤلاء، أمر أن يزول عن لغته و ما جرى عليه اعتياده، طفلاً و ناشئاً و كهلاً، لاشتدّ ذلك عليه و عظمت المحنة فيه و لم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة و تذليل للسان و قطع للعادة. فأراد الله رحمته و لطفه أن يجعل لهم

١- البقرة: ٢٨٦.

٢- وسائل الشيعة: ٨٦٦/٤.

٣- المؤمنون: ٥٤.

٤- آل عمران: ١٠٦.

٥- يس: ٦٠.

مُتَّسَعاً فِي اللُّغَاتِ وَ مُتَّصِرَفاً فِي الْحَرَكَاتِ كَتَيْسِيرِهِ عَلَيْهِمْ فِي الدِّينِ^(١).
و فِي رَوَايَةٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ النَّاسَ بِلُغَةٍ
وَاحِدَةٍ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَنَزَلَ جِبْرِئِيلُ، فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ: أَقْرَأْ كُلَّ قَوْمٍ
بِلُغَتِهِمْ.

و هَذَا مَا نَخْتَارُهُ فِي تَفْسِيرِ الْأَحْرَفِ السَّبْعَةِ، بِاخْتِلَافِ لُغَاتِ الْعَرَبِ
- أَيْ لَهْجَاتِهِمْ - فِي التَّعْبِيرِ وَالْأَدَاءِ.

وَالْحَرْفُ - فِي اللُّغَةِ -: الطَّرْفُ وَالنَّاحِيَةُ، قَالَ ابْنُ سَيِّدَةَ: «فَلَانٌ عَلَى
حَرْفٍ مِنْ أَمْرِهِ، أَيْ نَاحِيَةٍ مِنْهُ». فَالْكَلِمَةُ إِذَا كَانَتْ تَعْبَّرُ بِوَجْهِهِ فَكُلُّ وَجْهِ
لَهَا حَرْفٌ، لِأَنَّ وَجْهَ الشَّيْءِ طَرَفُهُ وَ جَانِبُهُ الَّذِي يَبْدُو مِنْهُ. وَ بِمَا أَنَّ الْقِرَاءَةَ
- وَ هِيَ كَيْفِيَّةٌ فِي تَعْبِيرِ الْكَلِمَةِ - وَجْهٌ مِنْ وَجْهِهِ تَعْبِيرُ اللَّفْظِ، فَهِيَ حَرْفٌ،
وَالْجَمْعُ أَحْرَفٌ.

أَمَّا الطَّائِفَةُ الثَّانِيَةُ فَتَعْنِي جَوَازَ تَبْدِيلِ الْكَلِمَةِ إِلَى مُرَادِفَتِهَا، عَلَى شَرِيطَةِ
التَّحْفُظِ عَلَى صُلْبِ الْمُرَادِ، وَ لَا تَتَبَدَّلُ آيَةُ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ أَوْ آيَةُ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ.
وَ قَدْ عَرَفَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَ أَبِي بَنْ كَعْبٍ بِذَهَابِهَا إِلَى جَوَازِ هَذَا التَّبْدِيلِ. قَالَ
ابْنُ مَسْعُودٍ: «لَقَدْ سَمِعْتُ الْقُرَّاءَ وَ وَجَدْتُهُمْ مُتَقَارِبِينَ، فَاقْرَأُوا كَمَا عَلَّمْتُمْ، فَهُوَ
كَقَوْلِكُمْ هَلَمْ وَ تَعَالَى^(٢)». وَ كَانَ يَعْلَمُ رَجُلًا أَعْجَمِيًّا الْقُرْآنَ، فَقَالَ: «إِنَّ
شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ» فَكَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ: طَعَامُ الْيَتِيمِ، وَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ

١- تأويل مشكل القرآن: ٣٩-٤٠.

٢- معجم الأدباء: ١٩٣/٤، رقم ٣٣.

يقول: الأئمة. فقال له ابن مسعود: «قل: طعام الفاجر». ثم قال: «إنه ليس من الخطأ في القرآن أن يقرأ مكان «العليم»: «الحكيم»، بل أن يوضع آية الرحمة مكان آية العذاب».^(١) وقرأ: «كَالصُّوفِ الْمُنْفُوشِ» بدل «كَالْعِهْنِ الْمُنْفُوشِ».^(٢) وتبعها في ذلك أنس وأبو هريرة أيضاً.

لكنه مذهب فاسد في رأي المحققين، ومن ثم رفضه جمهور المسلمين طول التاريخ، إذ لكل كلمة خاصة موقعية لاتناسبها كلمة أخرى، حتى لو كانت مرادفة لها، فضلاً عن غير المرادفة. إذ موضع استعمال «العليم الحكيم» - مثلاً - يختلف عن موضع استعمال «الغفور الرحيم».

قال سيدنا الأستاذ الإمام الخوئي رحمه الله: «هذا الاحتمال يوجب هدم أساس القرآن، المعجزة الأبدية والحجة على جميع البشر، ولا يشك عاقل في أن ذلك يقتضي هجر القرآن المنزل، وعدم الاعتناء بشأنه، وهل يتوهم عاقل ترخيص النبي ﷺ أن يقرأ القاري: «يس * والذكر العظيم * إنك لمن الأنبياء * على طريق سوى * إنزال الحميد الكريم * لتخوف قوماً ما خوف أسلافهم فهم ساهون»...! فلتقر عيون المجوزين لذلك! سبحانك هذا بهتان عظيم. وروي أن رسول الله ﷺ علم براء بن عازب دعاء كان فيه: «و نبيك الذي أرسلت» فقرأ براء: «ورسولك الذي أرسلت» فأمره ﷺ أن لا يضع الرسول موضع النبي، فإذا كان هذا شأن الدعاء فما بالك

١ - تفسير الرازي: ٢/ ٢١٣.

٢ - تأويل مشكل القرآن: ١٩.

بالقرآن، وهو كلام الله المنزل الخالد»^(١).

أما الطائفة الثالثة والرابعة فلا بأس بهما ذاتياً لو صحّت أسانيدهما غير أن الأصحّ - حسب الظاهر - هي الطائفة الأولى، التي عنت من الأحرف اختلاف لهجات العرب في التعبير والأداء.

والمقصود من السبعة، هي الكثرة النسبية، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾^(٢) و كالسبعين في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾^(٣).

ملحوظة: اختلاف اللهجة في تعبير الكلمة جائز إذا لم يصل إلى حدّ اللحن في المقياس العامّ، أمّا القراءة الملحونة فلا تجوز للمتمكّن عن النطق السليم - ولو بالتعلّم - . وأمّا العاجز فيكفيه ما يحسنه، ﴿وَلَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. وفي حديث الإمام الصادق عليه السلام يرويه عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ الْأَعْجَمِيَّ مَنْ أُمِّي لِيَقْرَأَ الْقُرْآنَ بِعَجْمِيَّتِهِ، فَتَرْفَعَهُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى عَرَبِيَّتِهِ»^(٤). وقد تقدّم.

١- البيان: ١٩٧-١٩٨.

٢- لقمان: ٢٣.

٣- التوبة: ٨٠.

٤- وسائل الشيعة: ٨٦٦/٤.

الأسئلة

١. كم طائفة أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف؟ أذكرها اجمالاً.
٢. ما المختار في تفسير الأحرف السبعة؟
٣. ماذا تعني الطائفة الأولى من أحاديث سبعة أحرف؟
٤. ماذا تعني الطائفة الثانية من أحاديث سبعة أحرف؟
٥. من الذي يجوز تبديل كلمات القرآن إلى مرادفتها؟ ولم لا يجوز ذلك؟
٦. ما هو رأي الإمام الخوئي رحمته الله في ردّ القول بجواز تبديل كلمات القرآن؟
٧. ماذا تعني الطائفة الثالثة والرابعة من أحاديث سبعة أحرف؟
٨. ما هو الملاك في قبول اختلاف اللهجة؟

ضابط قبول القراءة

ذكر أئمة الفن لقبول القراءة شروطاً ثلاثة: صحة السند و موافقة الرسم و استقامة وجهها في العربية.

و إذا فقد أحد هذه الشروط تصحح القراءة شاذة، لاتصح القراءة بها، لا في صلاة و لا في غيرها و تسقط عن اعتبارها قرآناً رأساً، سواء كانت من السبعة أم من غيرهم.

و نحن إذ كنّا نعتبر القرآن ذا حقيقة ثابتة، مستقلاً بذاته، متغaira عن القراءات جملة، فإنّ مسألة «اختيار القراءة الصحيحة» عندنا منحلّة. والقراءة الصحيحة هي التي تتوافق مع النصّ المتواتر بين المسلمين، منذ الصدر الأوّل إلى الآن. و لم يكن اختلاف القراءات سوى الاختلاف في كيفة التعبير عن هذا النصّ المحفوظ كاملاً على يد الأمة عبر الأجيال. و هكذا تعاهد المسلمون نصّ القرآن أمة عن أمة، نقلاً متواتراً في جميع خصوصياته الموجودة، نظماً و ترتيباً، و رسماً و قراءة، بكلّ أمانة و إخلاص عبر العصور، معجزة قرآنية خالدة: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا

لَهُ لِحَافِظُونَ»^(١) أي: على يد هذه الأمة مع الأبدية.

و توضيح ذلك يتوقف على تمهيد مقدّمة نستوضح فيها مسألة «تواتر النصّ القرآني» ثمّ التعرّج إلى مسألة «اختيار القراءة الصحيحة» نظراً للعلاقة القريبة بين المسألتين في هذا البحث، وإليك بإيجاز:

تواتر القرآن:

مما يبعث على اعتزاز هذه الأمة، هو تحفّظهم على كتاب الله نصّاً واحداً- كما أنزل على النبي ﷺ - طول التاريخ. المسلمون - على اختلاف آرائهم ومذاهبهم - اتفقوا، منذ الصدر الأوّل - عهد الصحابة الأوّلين - إلى العصر الحاضر - و سيبقى مع الدهر - على نصّ القرآن الأصيل، في جميع حروفه و كلماته و نظمه و ترتيبه و قراءته. تلقّوه من الرسول الأعظم ﷺ و توارثوه يدّاً بيداً. و ما نقرؤه اليوم هو الذي كان يقرؤه المسلمون في العهد الأوّل. حدّث محمد بن سيرين (م ١١٠) عن عبيدة السلماني (م ٧٣) قال: «القراءة التي عرضت على النبي ﷺ في العام الذي قبض فيه، هي القراءة التي يقرؤها الناس اليوم»^(٢) و من راجع الروايات يشهد بوضوح أنّها تجعل المعيار لمعرفة القراءة الصحيحة «قراءة الناس»، و تجعل غيرها شاذّة لا تجوز قراءته بتاتاً أو يضرب عنق قارئها - كما هو التعبير في بعضها - و

١- الحجر: ٩.

٢- الإثقان: ٥٠/١٠.

ليس سوى أنه خارج عن قراءة الناس.^(١)

و يدل - أيضاً - على تواتر النص الموجود - من غير أن يؤثر عليه شيء من اختلاف القراءات - تلك المخالفات في رسم الخطّ و ربّما كتبت وفقو قراءة العامة و تثبت رغم تقلّبات الدّهور و مرّ العصور. من ذلك قوله تعالى: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهٗ﴾،^(٢) الهاء زائدة للوقف. كتبت و قرئت هكذا منذ العهد الأوّل و تثبت مرّ الدّهور، قال عبدالله بن هاني البريزي - مولى عثمان - «كنت عند عثمان و هم يعرضون المصاحف، فأرسلني بكثف شاة إلى أبي بن كعب فيها: «لَمْ يَتَسَنَّهٗ». و فيها: «لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ». و فيها «فَأَمْهَلِ الْكَافِرِينَ». فدعا بدواة فحى اللامين و كتب «لِخَلْقِ اللَّهِ». و محى «فَأَمْهَلِ» و كتب «فَمَهْلٌ». و كتب «لَمْ يَتَسَنَّهٗ» فألحق فيها الهاء». ^(٣) و لولا أنه السماع من رسول الله ﷺ لم يكتبها أبي بالهاء، كما أنّ اختلاف القراء فيما بعد و تطوّر الكتابة والخطّ كليهما لم يؤثر على تغيير الكلمة عمّا كتبها الأوائل و قرأها السلف و من ورائهم عامّة المسلمين عبر الأجيال.

و أيضاً فإنّ قضية تشكيل المصحف على يد أبي الأسود، و تنقيطه على يد تلميذه نصر بن عاصم و يحيى بن يعمر دليل على أنّ القرآن كان ذا حقيقة ثابتة في صدور المسلمين فجاء تقييدها في المصحف على يد زعماء.

١- راجع: المرشد الوجيز: ١٨٠ - ١٨١ و مناهل العرفان: ٤٥٢/١.

٢- البقرة: ٢٥٩.

٣- الإتيان: ١٨٣/١.

الأمة خشية تحريف من لا عهد له بالقرآن. والمصاحف المرسومة وفق المصطلح الأوّل باقية لا تختلف في إعرابها و حركاتها و مرسوم كلماتها عمّا بأيدينا من المصاحف الحاضرة.

و يدلّ - أيضاً - وجود قطع قرآنيّة جاءت في كلمات السلف، لغرض الاستشهاد أو التفسير أو نحو ذلك، لا تختلف عن النصّ الموجود.

كما أنّ مخالفات جرت على ألسن بعض السلف، وقعت موضع إنكار العامة و عرفت منذ العهد الأوّل أنّها غير نصّ الوحي، كقراءة أبي بكر لما احتضر: «وجاءت سكرة الحقّ بالموت»^(١) و أرباب التاريخ - المفسرون والمحدّثون - رموا - منذ ذلك العهد - هذه القراءة بالشذوذ المخالف للرسم^(٢). فلولّا أنّ للقرآن حقيقة ثابتة معهودة عند الجميع لما كان لهذا الغوغاء سبب واضح.

و عليه فالمعيار لتعيين القراءة هي: موافقتها مع النصّ الأصل المحفوظ لدى عامّة المسلمين بشروط نعرضها في الفصل التالي.

ملاك صحّة القراءة:

موافقة القراءة مع النصّ الأصل تتحقّق إذا توفّرت فيها الشروط التالية:

أوّلاً: موافقتها مع الثبت المعروف بين عامّة المسلمين، في مادة الكلمة

١- راجع: تفسير القرطبي: ١٢/١٧-١٣. في أشهر الروايتين.

٢- راجع أيضاً: البرهان: ١/ ٣٣٥.

و صورتها و موضعها من النظم القائم، حسب تعاهد المسلمين خلفاً عن سلف. ففي مثل قوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾^(١) من التبيين و «فَتَبَيَّنُوا» من التثبت^(٢)، لاشك أن الصحيح هو إحدى القرائتين والأخرى باطلة لأن المصحف أول ما شكّل و نقط كان تشكيله و تنقيطه على أحد الأمرين و هو الذي كان معروفاً و متعاهداً بين عامة المسلمين، و لم يكن أبو الأسود لا تلميذه مترددين في وضع العلام المذكورة، و ثبت الكلمات والحروف وفق مرتكزهم العام، كما تلقّوها يداً بيد من غير ترديد أصلاً. وإنما الاختلاف جاء من قبل اجتهاد القراء المتأخرين، شيئاً خارجاً عن النصّ الأصل المعروف عند عامة الناس. و من ثمّ فلما سأل فضيل بن يسار، الإمام الصادق عليه السلام عن حديث «نزل القرآن على سبعة أحرف» قال: «كذبوا - أعداء الله - و لكنّه نزل على حرف واحد من عند الواحد». ثمّ لتعيين هذا الحرف الواحد جعل الإمام عليه السلام المقياس معهود عامة المسلمين، قال: «اقرأ كما يقرأ الناس». و في رواية أخرى: «اقرأوا كما علّمتم»^(٣). فجعل المقياس «كما يقرأ الناس» أي: عامة المسلمين، و لم يعتبر من قراءة القراء شيئاً، والرواية الأخرى أصرح، «كما علّمتم» أي: تعاهدتموه جيلاً عن جيل وأمة عن أمة لا قراءة أفراد هم آحاد. فالصحيح من القرائتين هي «فَتَبَيَّنُوا» لأنّ ثبت المصحف قديماً و حديثاً والذي تعاهدته الأمة هو بالباء والقراءة

١- الحجرات: ٦.

٢- قرأ حمزة والكسائي بالثاء و قرأ الباقرن بالباء. الكشف عن وجوه القراءات السبع: ١/ ٣٩٤.

٣- راجع: وسائل الشيعة: ٤/ ٨٢١-٨٢٢.

الأخرى ساقطة عندنا و غير جائزة إطلاقاً.

و في مثل قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾^(١) - ثلاثياً بمعنى انقطاع الدم، أو «يَطْهَرْنَ» مزيداً فيه من باب التفعّل على معنى التطهر بالماء^(٢) - نرجّح التخفيف، لأنّ شرط جواز إتيانهمّ بلا كراهة أمران: انقطاع الدم والاعتسال. و أمّا على قراءة التشديد فيبقى أمر انقطاع الدّم مسكوتاً عنه. و في مثل قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾^(٣)، الذي قرأه أبوبكر: «وجاءت سكرة الحقّ بالموت». نرجّح الأولى لأنّها مشهورة والأخرى باطلة، لمخالفتها الرسم والمتعاهد بين عامّة المسلمين جميعاً.

ثانياً: موافقتها مع الأفصح في اللّغة والأفشى في العربية و يعرف ذلك بالمقارنة مع القواعد الثابتة يقيناً من لغة العرب الفصحى. والدليل على ذلك هو أنّ القرآن نزل على أعلى درجة من البلاغة، يستحيل أن يستعمل كلمة يمجّها الذوق العربي السليم، أو يخالف قياساً تسلّمته العرب الفصحى عادة طبيعياً متعارفة. فقراءة الحسن «وماتَزَلَّتْ به الشَّيَاطُونُ» غلط بلا ريب.^(٤) توهم أنّ الشيطانَ يجمع بالواو والنون.

١- البقرة: ٢٢٢.

٢- قرأ الحرّميّان و أبو عمرو و ابن عامر و حفص مضموم الهاء مخفّفاً. و قرأ الباقر بفتح الهاء مشدّداً. الكشف عن وجوه القراءات السبع: ١/ ٢٩٤.

٣- ق: ١٩.

٤- راجع: البحر المحيط: ٤٦/ ٧، الكشاف: ١٢٩/ ٣. والقراءات الشاذّة: ١٠٨. قال أبو حاتم: «هي غلط منه أو عليه». و قال النحاس: «هو غلط عند جميع النحويين».

ثالثاً: أن لا يعارضها دليل قطعي، سواء كان برهاناً عقلياً أم سنة متواترة أم رواية صحيحة الإسناد مقبولة عند الأئمة. فمثل «أرجلكم» - بالخفض - وإن قرأ بها بعض كبار القراء لكنها مرفوضة حيث كانت معارضة للدليل الأقوى، كما رفضها جمهور المسلمين. وكانت علامة الثبوت الأولى والتي كان عليها ثبت المصاحف هي علامة النصب. أما الدليل الأقوى الذي يرجح النصب على الخفض، فهو اعتبار الاستيعاب - طولاً - في مسح الأرجل، نظراً لذكر الحد - بدءً و منتهىً - في الآية الكريمة (من رؤوس أصابع الأقدام إلى الكعبين).

و لتوضيح هذا الجانب - من المسألة الفقهية المستنبطة من الآية الكريمة - لابد من تهديد مقدّمة هي: إنّ مادّة «مسح» يتعدّي بنفسه إلى المفعول به، ولا يحتاج في تعديته إلى إضافة حرف في مدخوله لكن زيادة الباء في هذا الموضع من الآية كانت لنكتة، وهي أنّها لو لم تزد هنا لاستدعى إضافة «مسح» إلى متعلّقه، استيعاب المسح لمحله استدعاءً بالطبع. كما في كلّ فعل أُطلق بالنسبة إلى متعلّقه. كما في «فاغسلوا وجوهكم» استدعى استيعاب الغسل لجميع صفحة الوجه طولاً و عرضاً. ومن ثمّ لو لم يقيّد الغسل في اليدين بقوله «إلى المرافق» لاستدعى استيعاب جميع اليد حتّى المنكب. و عليه فلو لم تزد الباء و قيل «وامسحوا رؤوسكم» لاستدعى مسح الرأس كلّ نظير الوجه، حرفاً بحرف. فزيدت الباء لتكون دليلاً على كفاية مجرّد المسح الملصق بالرأس، فلو وضع المتوضّي رأسه إصبعه على رأسه و جرّها جرّاً خفيفاً، فقد صدق «لصوق المسح بالرأس».

والامتثال يقتضى الإجزاء - كما في الأصول - و لا امتثال عقيب الامتثال . هذا في الرأس . أمّا في الرّجل ، فلما جاء ذكر الحدّ للمسح ، كان ذلك دليلاً على إرادة استيعاب ما بين الحدّين (رؤوس أصابع القدم ، الكعبين) طويلاً . و من ثمّ فإنّه معطوف على مدخول «وامسحوا» بلا زيادة الباء ، أي محلّ المجرور و هو النصب . نعم ليس النصب عطفاً على مدخول «فاغسلوا» - كما زعمه القائل بوجوب غُسل الأرجل - استناداً إلى قراءة النصب في الآية ، و هو فهم مخطأ و استنباط معوجّ ، بعد ملاحظة أنّ العطف مع الفصل بالأجنبي مرفوض أو مرجوح في اللغة و لا يحمل عليه القرآن الكريم .

القراءة المختارة:

أمّا القراءة التي نختارها - والتي تجمّعت فيها شرائط القبول أجمع - فهي قراءة عاصم برواية حفص بالخصوص ، لأنّها القراءة التي كانت عليها جماهير المسلمين و تلقّوها يداً بيدٍ منذ الصدر الأوّل حتّى توالي العصور . و ستأتي مزايا أخرى حوتها هذه القراءة بالذات دون غيرها من سائر القراءات . لكن الشائع بين الفقهاء هو جواز القراءة بالسبع في الصلاة وغيرها ، الأمر الذي يمكن توجيهه على مشارب فقهاء العامّة ، إمّا لأجل تواترها عندهم - كما يراه البعض - أو لانطباق حديث الأحرف السبعة عليها ، حسبما زعمه آخرون . لكن الأمر يشكل على مباني فقهاءنا الإماميّة الذين يرون القرآن واحداً نزل من عند واحد . إذن فما وجه تجويزهم القراءة بالسبع وغيرها؟
عمدة الاستدلال على جواز الأخذ بالقراءات المعروفة تتلخّص في :

١. سيرة المسلمين على الأخذ بها.

٢. إجماع الفقهاء على جواز ذلك.

٣. تظافر النصوص الواردة عن الأئمة عليهم السلام في الأمر بالعمل بما عند الناس والمعروف لدى المسلمين.

و ناقش سيدنا الحكيم عليه السلام - في هذه الوجوه -: بأنّ المقطوع به من سيرة المسلمين منذ الصدر الأوّل هو الأخذ بأيّ قراءة صحّت لديهم و ليست من السبعة فحسب و لاسيّاً تأخّر السبعة المعروفة عن العهد الأوّل. و أمّا الإجماع فمستنده الروايات و هي لا تعني خصوص هذه السبعة التي تأخّرت معروفيتها عن زمن الصادق و الكاظم عليهم السلام و هما مصدرا تلك النصوص. نعم مقتضاها جواز العمل بكلّ قراءة كانت معروفة على عهدهم عليهم السلام لا غير فيشكل شمولها لبعض القراءات السبعة ممّا لم تكن متداولة ذلك العهد أو حدث متأخراً.^(١)

و المناقشة متينة، سوى أنّ حمل النصوص على إرادة القراءات المتداولة لدى القراء، و التي كانت مستنداتها - في الأغلب - تعاليل اجتهادية و ترجيحات نظرية أو استحسانية، بعيدٌ. و حمل جماعة من الفقهاء النصوص على التقيّه^(٢) فالواجب علينا النظر في النصوص التي هي عمدة الباب. و هي وردت بتعبيرين:

١ - الأمر بالقراءة على ما يقرؤه الناس.

١ - مستمك العروة: ٦/ ٢٤٣ - ٢٤٥.

٢ - راجع: تفسير الصافي: ١/ ٤١ (المقدمة رقم ٨). و الحدائق الناضرة: ٨/ ٩٩ - ١٠٠.

٢- الأمر بها كما تعلّموه.

و هذا لا يعني سوى الأمر بالقراءة على ما تداوله جمهور المسلمين، لأنّهم المعنيّون بالناس لخصوص القراء، إذ لا وجه لهذا الاختصاص. و لاسيّما بعد ما عرفت أنّ القرآن شيء والقراءات شيء آخر، والأوّل سبيله مجرى التواتر والثاني هي الاجتهادات النظرية. فلا بدّ أنّ المراد من قراءة الناس هي القراءة المتواترة المحتفظة لدى عامّة المسلمين، والتي توارثوها يداً بيد و جيلاً بعد جيل. و هذه القراءة التي تداولتها العامّة و توارثها المسلمون أمة بعد أمة هي التي قرأ بها عاصم بن أبي النجود برواية حفص ابن سليمان و قد توافقت عليها الأمة لميزات وجدوها في قراءته كما سيأتي.

الأسئلة

١. ما الضابط لقبول القراءة؟
٢. ما الدليل على تواتر النص القرآني الموجود؟
٣. ما الملاك في صحة القراءة؟
٤. ما هي القراءة المختارة؟ و ما الدليل على ذلك؟
٥. أذكر الأدلّة على جواز القراءة بالسبعة في الصلّة إجمالاً.
٦. لم لا تدلّ السيرة على جواز القراءة بالسبعة في الصلّة؟
٧. لماذا نناقش في الإجماع على جواز القراءة بالسبعة في الصلّة؟
٨. هل الروايات تدلّ على جواز القراءة بالسبعة في الصلّة؟ بين ذلك.

القراءات السبعة

كان المسلمون في العهد الأوّل يقرأون القرآن كما يتلقّونه من صحابة الرسول ﷺ و من بعدهم من التابعين ممّن حلّ في بلدهم من الأئمّة الكبار الذين كانوا علماء الأُمّة في البلاد. ثمّ تجرّد قوم لفنّ القراءة والأخذ والتلقّي والإقراء سمة اختصاصيّة واعتنوا بذلك أتمّ عناية واشتهروا في قراءة القرآن وإقرائه حتّى صاروا في ذلك أئمّة يقتدى بهم و يرحل إليهم و يؤخذ منهم. و أوّل إمام معتبر تصدّى لضبط ما صحّ من القراءات و جمعها في كتاب بشكل مبسّط و بتفصيل هو أبو عبيد القاسم بن سلام الأنصاري (م ٢٢٤) تلميذ الكسائي.

حصر القراءات في السبعة:

في مطلع القرن الرابع كان أبوبكر بن مجاهد قد تصدّر كرسيّ شيخ القراء -رسميّاً- من قبل الدولة ببغداد. كان ابن مجاهد حريصاً على الأخذ بتقليد السلف فيما قرأوا. لهذا جاهد جهده في سدّ باب الاختيار في القراءة

وانتهى إلى حصر القراءات في السبعة المشهورة و يعود أكثر لومه عليه .
وعبارة «القراءات السبعة» لم تكن معروفة في الأمصار الإسلامية ، حين بدأ
العلماء يؤلفون في القراءات ، كأبي عبيد القاسم بن سلام و أبي جعفر
الطبري و أبي حاتم السجستاني و غيرهم . فقد ذكروا في مؤلفاتهم أضعاف
تلك القراءات و إنما اشتهرت هذه العبارة على رأس المائة الرابعة من لدن ابن
مجاهد . و توهم الكثير من عوام الناس أنها هي المرادة من الأحرف
السبعة التي جاءت في الحديث النبوي .

القراء السبعة

- ١ - عبدالله «ابن عامر» اليحصبي ، قارئ الشام (م ١١٨) .^(١)
- ٢ - عبدالله «ابن كثير» الداري ، قارئ مكة (م ١٢٠) .^(٢)
- ٣ - «عاصم» بن أبي النجود الأسديّ ، قارئ الكوفة (م ١٢٨) .^(٣)
- ٤ - «ابو عمرو» بن العلاء المازني ، و اسمه زبان ، قارئ البصرة
(م ١٥٤) .^(٤)

-
- ١ - راويه هما : «هشام بن عمار» (٢٤٥ - ١٥٣) و «ابن ذكوان» (٢٤٢ - ١٧٣) . و لم يعرف السبب في
اختيار ابن مجاهد هذين للرواية عن ابن عامر مع أنهما لم يدركاه .
 - ٢ - راويه هما : «البرقي» (٢٥٠ - ١٧٠) و «قُتَيْل» (٢٩١ - ١٩٥) و لم يدركاه .
 - ٣ - راويه هما : «حفص» بن سليمان بن ربيعة (١٨٠ - ٩٠) و «شعبة» أبو بكر ابن عتيّاش (١٩٣ - ٩٥) . و
كان حفص أضبط بقراءة عاصم .
 - ٤ - راويه هما : «الدوري» حفص بن عمر (٢٤٦) و «السوسي» صالح ابن زياد (م ٢٦١) و لم يدركاه ، و
إنما روي عن اليزيدي عنه .

- ٥ - «حمزة» بن حبيب الزيّات، قارئ الكوفة أيضاً (م ١٥٦).^(١)
- ٦ - «نافع» بن عبد الرحمان الليثي، قارئ المدينة (م ١٦٩).^(٢)
- ٧ - علي بن حمزة «الكسائي» قارئ الكوفة أيضاً (م ١٨٩).^(٣)
- و زاد المتأخرون ثلاثة، تنميّاً للعشرة، هم:
- ٨ - «خلف» بن هشام، راوي حمزة، و قارئ بغداد (م ٢٢٩).^(٤)
- ٩ - «يعقوب» الحضرمي، ابن إسحاق، قارئ البصرة (م ٢٥٥).^(٥)
- ١٠ - «أبو جعفر» يزيد بن القعقاع المخزومي. قارئ المدينة (م ١٣٠).^(٦)
- و ألحق بهؤلاء أربعة، قرأوا بالشواذّ، و قد اعتبرت قراءاتهم و قبلتها العامة، و هم:

-
- ١ - راوياه هما: «خلف» بن هشام البزاز (٢٢٩ - ١٥٠) و «خلاد» ابن خالد الشيباني (م ٢٢٠) راويا عنه مع الواسطة.
- ٢ - راوياه هما: «قالون»، واسمه عيسى بن ميناء (٢٢٠ - ١٢٠) و «وُزّش» عثمان بن سعيد (١٩٧ - ١١٠).
- ٣ - راوياه هما: «الليث» بن خالد البغدادي (م ٢٤٠). و «الدوري» حفص بن عمر راوي أبي عمرو أيضاً (م ٢٤٦).
- ٤ - راوياه هما: «أبو يعقوب» المروزي إسحاق بن إبراهيم، (م ٢٨٦) و «أبو الحسن» إدريس بن عبد الكريم (م ٢٩٢).
- ٥ - راوياه هما: «رويس» محمد بن المتوكل اللؤلؤي (م ٢٣٨) و «روح» بن عبد المؤمن الهذلي (م ٢٣٥).
- ٦ - راوياه هما: «ابن وردان» عيسى الحذاء (م ١٦٠) و «ابن جَمَاز» سليمان بن مسلم الزهري (م ١٧٠).

- ١١ - «الحسن البصري» بن يسار، قارئ البصرة (م ١١٠).^(١)
- ١٢ - «ابن محيصن» محمد بن عبد الرحمان. قارئ مكة مع ابن كثير (م ١٢٣).^(٢)
- ١٣ - «اليزيدي» يحيى بن المبارك. قارئ البصرة (م ٢٠٢).^(٣)
- ١٤ - «الأعمش» سليمان بن مهران الأسدي، قارئ الكوفة (م ١٤٨).^(٤)
- ملحوظة: أربعة من القراء السبعة هم شيعة آل البيت عليهم السلام بالتصريح و من المحافظين الثقات: عاصم بن أبي النجود و أبو عمرو بن العلاء و حمزة بن حبيب و علي بن حمزة الكسائي.^(٥) و واحد من أشيع معاوية و هو ابن عامر كان لا يتورع الكذب والفسوق.^(٦) و اثنان - هما: ابن كثير المكي و
-
- ١ - راويه هما: «شجاع» بن أبي نصر البلخي (١٩٠ - ١٢٠). و «الدوري» حفص بن عمر (م ٢٤٦). روى عنه بالإسناد.
- ٢ - راويه هما: «البزي» أحمد بن محمد (٢٥٠ - ١٧٠) و «ابن شنبوذ» محمد بن أحمد (م ٣٢٨). روى عنه بالإسناد.
- ٣ - راويه هما: «سليمان بن الحكم» الخياط (م ٢٣٥) و «أحمد بن فرج» الضرير (م ٣٠٣) روى عن الدوري عنه.
- ٤ - راويه هما: «الشنبوزي» محمد بن أحمد البغدادي (٣٨٨ - ٣٠٠). و «المطوعي» الحسن بن سعيد البصري (م ٣٧١). روى عنه مع الواسطة.
- ٥ - راجع: تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ٢٤٦.
- ٦ - فقد كذب في سنة ولادته. و في انتسابه إلى حمير. و في إسناد قراءته إلى شيوخ لم يلتق بهم. أو إلى أناس لم يكونوا مقرئين كعثمان و معاوية. قال: «قرأت على معاوية...». معرفة القراء الكبار: ج ١، ص ٦٧. و من ثم بعث سليمان بن عبد الملك مهاجراً لينحيه عن إمامة المسجد بدمشق و يقول له: «تأخر فلن يتقدم منا دعي». المصدر: ص ٦٨. و راجع ترجمته في هذا الكتاب: ص ١٨٦ برقم ٨ طبعة ٣.

نافع المدني - مستورا الحال. لكن نسبتها إلى «فارس» بالخصوص^(١) ربّما تكشف عن موقفها من مذهب أهل البيت عليهم السلام لأنّهم أسبق من عرف الحقّ ولمسه في هذا الاتجاه.

حفص وقرأتنا الحاضرة

كانت القراءة الدارجة بين المسلمين منذ العهد الأوّل حتّى عصرنا الحاضر هي القراءة التي تتوافق مع قراءة عاصم برواية حفص و كان لذلك سببان: الأوّل: إنّ قراءة حفص كانت هي قراءة عامّة المسلمين و إنّ النسبة مقلوبة حيث كان حفص و شيخه عاصم حريصين على الالتزام بما وافق قراءة العامّة والرواية الصحيحة المتواترة بين المسلمين، و هي القراءة التي أخذها عاصم عن شيخه أبي عبد الرحمن السّلمي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام و لم يكن عليّ عليه السلام يقرأ إلّا بما وافق نصّ الوحي المتواتر بين المسلمين.

الثاني: إنّ عاصماً بين القراء المعروفين كان فريداً بسماة و خصائص جعلته علماً يشار إليه بالبنان فقد كان ضابطاً متقناً شديد الحذر والاحتياط فيمن يأخذ عنه القرآن، متنبّهاً. و من ثمّ لم يأخذ القراءة إلّا من أبي عبد الرحمن السّلمي عن عليّ عليه السلام و كان يعرضها على رزّ بن حبيش عن ابن مسعود. فالقراءة الحاضرة -قراءة حفص- قراءة شيعيّة خالصة، رواها

١ - فإنّ ابن كثير ينتهي نسبه إلى زاذان بن فيروزان بن هرمز، من أبناء فارس... و كان نافع أصله من

إصبيان. راجع: التيسير: ٤. و غاية النهاية: ٢/ ٣٣٠، و ١/ ٤٤٣.

حفص - وهو من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ^(١) عن شيخه عاصم - وهو من أعيان شيعة الكوفة الأعلام ^(٢) - عن شيخه السلمي ^(٣) - وكان من خواص علي عليه السلام - عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله ﷺ عن الله عز وجل . مضافاً إلى أن عاصماً جمع بين الفصاحة والإتقان والتحرير والتجويد . الأمر الذي حُصّ به الوصف في كتب تراجم القراء ^(٤) كما اختص بعلو الإسناد وارتفاعه إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بواسطة واحدة ، هو التابعي الكبير أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي . و كان حفص أتقن أصحاب عاصم وأعلمهم بقراءته .

الأسئلة

- ١ . من الذي دوّن القراءات وجمعها في كتاب لأوّل مرّة؟
- ٢ . من هو ابن مجاهد و ماذا فعل بالقراءات؟
- ٣ . من هم القراء السبعة؟
- ٤ . ما هو مذهب القراء السبعة؟
- ٥ . لم صارت قراءة عاصم برواية حفص شائعة بين المسلمين؟
- ٦ . أذكر سند رواية قراءة حفص .

١ - راجع : الرجال للشيخ الطوسي : ١٧٦ .

٢ - راجع : التأسيس للمصدر : ٣٤٦ .

٣ - المعارف لابن قتيبة : ٢٣٠ ، والتأسيس : ٣٤٢ .

٤ - ابن الجزري في شرح طيبة النشر : ٩ ، والمكرّر لسراج الدين الأنصاري : ٥ .

الناسخ والمنسوخ

من طبيعة الحركة الإصلاحية الآخذة إلى التقدّم بوجه عامّ، أن يتوارد على تشريعاتها نسخ متتابع، حسب تدرّجها التصاعدي نحو قمة الكمال. وهكذا استدعت التشريعات الإسلامية نسخاً متتالياً منذ أن ظهرت الدعوة في مكّة المكرمة وحتّى إلى ما بعد الهجرة إلى المدينة المنورة وقد انتهت شريعة النسخ - فيما يخصّ أيّ الذكر الحكيم - بوفاة ﷺ حيث انقطع الوحي.

و أوّل من جمع أصول هذا العلم في تدوين جامع هو أبو محمّد عبد الله بن عبد الرّحمان الأصمّ المسمعيّ من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، له رسالة في الناسخ والمنسوخ.

تعريف النسخ:

النسخ هو رفع تشريع سابق - كان يقتضي الدوام حسب ظاهره - بتشريع لاحق بحيث لا يمكن اجتماعهما معاً، إمّا ذاتاً - إذا كان التنافي بينهما

بيّناً - أو بدليل خاص، من إجماع أو نص صريح.

إذن فرفع الحكم عن بعض أفراد العام، ليس نسخاً في الاصطلاح، بل هو تخصيص، إذ لم يرتفع التشريع السابق نهائياً، وإنما اختصّ بسائر الأفراد. وكذلك إذا كان الحكم محدوداً صريحاً من أوّل الأمر فارتفاعة بانتهاء أمدّه لا يكون نسخاً في الاصطلاح.

وهكذا إذا ارتفع تكليف عند مصادفة حرج أو اضطرار أو ضرر شخصي أو لمصلحة وقتية - على ما يفضّلها الفقهاء - لا يكون من النسخ في شيء، إذ جميع ذلك لم يكن من ارتفاع التشريع، وإنما تبدّل الموضوع بطروء أحد هذه العناوين. كما لو جاز للمضطرّ أن يأكل من الميتة بقدر ما يسدّ رمقه، فإنّ مثل هذا الجواز لا يكون نسخاً للحرمة الأصليّة التي كان موضوعها الإنسان المختار وقد تبدّل إلى إنسان مضطرّ.

حقيقة النسخ:

النسخ في حقيقته الأهلّة - بمعنى «نشأة رأي جديد» - مستحيل عليه تعالى، إذ هو بذاك المعنى يستدعي تبدّل رأي المشرّع، بظهور خطأ أو نقص في تشريعه السابق، عثر عليه متأخراً فأبدل رأيه إلى تشريع آخر ناسخ للأوّل، و يكون هذا الأخير هو الكامل الصحيح في نظره فعلاً، و يجوز تبدّل رأيه ثانياً و ثالثاً إلى تشريع ثالث و رابع و هكذا، مادام يحتمل خطأه في كلّ تشريع. هذا المعنى إنّما يختصّ المشرّعين غير المحيطين بالمصالح والمفاسد الكامنة وراء الأمور. أمّا العالم بالخفايا المحيط بمجوامع الواقعيّات في

طول الزمان و عرضه على حدّ سواء فيمتنع عليه أن يخطأ في إصابة الواقع، أو يفوته نقص كان غافلاً عنه ثمّ وجده.

إذن فالنسخ المنسوب إليه تعالى نسخ في ظاهره، أمّا الواقع فلا نسخ أصلاً وإنما هو حكم موقت و تشريع محدود من أوّل الأمر و انّته تعالى لم يشرّعه حين شرّعه إلّا و هو يعلم أنّ له أمداً ينتهي إليه و إنّما المصلحة الواقعيّة اقتضت هذا التشريع الموقت. لكن لمصلحة في التكليف أخفى تعالى بيان الأمد ثمّ في نهاية الأمد جاء البيان إلى الناس: إنّ هذا التشريع قد انتهى بهذا الأجل. و من المصلحة الاختبار بتوطينهم على الطاعة فيما كان التكليف السابق شاقاً - مثلاً - و غير ذلك. و عليه فالتعبير عن هذه الظاهرة الدينيّة بالنسخ تعبير ظاهري و ليس من الحقيقة في شيء.

الفرق بين النسخ والبداء:

النسخ خاصّ بالتشريعات - اصطلاحاً - والبداء بالتكوينيات. و إنّ كلاّ منهما في مفهومه الأصلي - و هو تبدّل الرأي - مستحيل على الله تعالى بالقياس إلى علمه تعالى الأزلي المحيط، بلافرق. إذن فكما أنّ النسخ إنّما كان بمعناه الظاهري مستعملاً في الشريعة و هو ظهور الشيء بعد خفاه على الناس، فكذلك البداء ظهور أمرٍ بعد خفاء. سوى أنّ الأوّل ظهور أمرٍ حكم كان معلوماً عند الله خافياً على الناس، والثاني ظهور أمرٍ أو أجل كان محتملاً عنده تعالى من الأزل، و خافياً على الناس ثمّ بدا لهم أي: ظهرت لهم حقيقته.

الفرق بين النسخ والتخصيص:

إطلاق النسخ على التخصيص كان شائعاً في متداول السلف، و من ثمّ أكثروا القول في عدد الآي المنسوخة.

و يفترق النسخ عن التخصيص: إنّ النسخ قطع لاستمرار التشريع السابق بالمرّة بعد أن عمل به المسلمون في فترة من الزّمن طويلة أم قصيرة. أمّا التخصيص فهو قصر الحكم العام على بعض أفراد الموضوع و إخراج البقيّة عن الشمول، قبل أن يعمل المكلفون بعموم التكليف. فالنسخ اختصاص للحكم ببعض الأزمان. والتخصيص اختصاصه ببعض الأفراد، ذاك تخصيص أزماي و هذا تخصيص أفرادي و لا يشتهبه أحدهما بالآخر.

شروط النسخ في القرآن:

الأول: ~~تحقق التنافي بين تشريعين~~ وقعا في القرآن، بحيث لا يمكن اجتماعهما في تشريع مستمرّ، تنافياً ذاتيّاً، كما في آيات وجوب الصّبح مع آيات القتال، فإنّ قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾^(١) أمر بالصّبح عن المشركين إذ كان المؤمنون بمكّة في ضعف شديد فنسخت بالإذن في القتال أولاً بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^(٢) ثمّ التحريض عليه بقوله

١- الجاثية: ١٤.

٢- الحج: ٣٩.

تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ»^(١) و أخيراً باستئصال المشركين عامةً بقوله تعالى: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ»^(٢).

أو بدليل قاطع دلّ على نقض التشريع السابق بتشريع لاحق. كما في آية الإمتاع إلى الحول مع آية الاعتداد بأربعة أشهر و عشرة أيام و آية المواريث فإنّ قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»^(٣) نسخت بقوله تعالى: «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا»^(٤) و قوله تعالى: «وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ»^(٥) فقد قام الإجماع على نسخ الأولى بالأخيرتين.^(٦)

الثاني: أن يكون التنافي كلياً على الإطلاق، لا جزئياً و في بعض الجوانب، فإنّ الثاني تخصيص في الحكم العام، وليس من النسخ في شيء. فإنّ قوله تعالى: «وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ

١- الأنفال: ٦٥.

٢- التوبة: ٥.

٣- البقرة: ٢٤٠.

٤- البقرة: ٢٣٤.

٥- النساء: ١٢.

٦- راجع: تفسير المختصر لشبر رحمه الله: ٧٦ ط م.

جُنَاحٌ أَنْ يَضَعَنَّ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ»، ^(١) لا تصلح ناسخة لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَفْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ لِيُضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ...»، ^(٢) بعد أن كانت الأولى أخص من الثانية والخاص لا ينسخ العام بل يخصه بما عداه من أفراد الموضوع.

الثالث: أن لا يكون الحكم السابقة، محدداً بأمـد صريح، لأن الحكم بنفسه يرتفع عند انتهاء أمده من غير حاجة إلى النسخ. فمثل قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ»، ^(٣) لا يصدق عليه النسخ عندما تفيء الفئة الباغية و ترجع إلى رشدتها والتسليم لحكم الله.

الرابع: أن يتعلق النسخ بالتشريعات، فلا نسخ فيما يتعلق بالأخبار. فقوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ»، ^(٤) لا يصلح ناسخاً لقوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ»، ^(٥) فيما زعمه مقاتل بن سليمان لأن الآية إخبار عن واقعية لا تتغير بالوجوه والاعتبار.

وهكذا الإباحة الأصلية ترتفع بحدوث التشريع من غير أن يكون ذلك ناسخاً، حيث إن تلك الإباحة لم تكن بتشريع، وإنما كانت بحكم العقل

١- النور: ٦٠.

٢- النور: ٣١.

٣- الحجرات: ٩.

٤- الواقعة: ٣٩- ٤٠.

٥- الواقعة: ١٣- ١٤.

الفطري (البراءة العقلية)، موضوعها: عدم التشريع فترتفع بالتشريع.
 الخامس: التحقّظ على نفس الموضوع، إذ عندما يتبدّل موضوع حكم
 إلى غيره، فإنّ الحكم يتغيّر لاحالة حيث إنّ الحكم قيد موضوعه. وليس
 هذا نسخاً، فمثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ
 عَلَيْهِ﴾،^(١) ليس نسخاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ﴾.^(٢)
 الأمر الذي اشتبهه على كثير ممّن كتب في النسخ كابن حزم.^(٣)

صنوف النسخ في القرآن

النسخ في القرآن يتصوّر على أقسام:

الأوّل: نسخ الحكم والتلاوة معاً: بأن تسقط من القرآن آية كانت
 ذات حكم تشريعي و كان المسلمون يقرأونها و يتعاطون حكمها، ثمّ
 نسخت و بطل حكمها و محيت عن صفحة الوجود رأساً و هذا النوع من
 النسخ مرفوض عندنا، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلُ
 مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.^(٤)

والقائلون بهذا القول استندوا إلى حديث عائشة، قالت: «كان فيما
 أنزل من القرآن: «عشر رضعات معلومات يحرم من»، ثمّ نسخن به» خمس

١- البقرة: ١٧٣.

٢- البقرة: ١٧٣.

٣- رسالة الناسخ والمنسوخ - بهامش الجلالين: ١٦١ / ٢.

٤- فصلت: ٤٢.

معلومات» قالت: و توفي رسول الله ﷺ و هنّ فيما يقرأ من القرآن.^(١) وكانت الصحيفة تحت السرير فاشتغلنا بدفن رسول الله ﷺ فدخل داجن البيت فأكله.^(٢) و هذا حديث واحد يرجع إلى التلاعب بالقرآن الكريم مضافاً إلى أنّ هذا القول يرجع إلى القول بالتحريف و نسيان آية تتلى حتّى وفاة رسول الله ﷺ، الأمر الذي ينكره جماعة المسلمين. و معلوم أنّ بما ذكرته عائشة لا ينعدم حفظه من القلوب و لا يتعذر عليهم إثباته في صحيفة أخرى، فعرفنا أنّه لا أصل لهذا الحديث.

الثاني: نسخ التلاوة دون الحكم: بأن تسقط آية من القرآن الحكيم، كانت تقرأ، و كانت ذات حكم تشريعيّ، ثمّ نسيت و محيت عن صفحة الوجود لكن كان حكمها بقي مستمراً غير منسوخ. و هذا النوع من النسخ أيضاً عندنا مرفوض، لأنّ القائل بذلك إنّما يتمسك بأخبار آحاد زعمها صحيحة الإسناد، و غفل عن أنّ نسخ آية محكمة شيء لا يمكن إثباته بأخبار آحاد لا تفيد سوى الظنّ و «إنّ الظنّ لا يُغني عن الحقّ شيئاً».

هذا فضلاً عن منافاته لمصلحة نزول نفس الآية أو الآيات إذ لو كانت المصلحة التي كانت تقتضي نزولها هي اشتغالها على حكم تشريعي ثابت فلماذا ترفع الآية وحدها، في حين اقتضاء المصلحة بقاءها لتكون سنداً للحكم الشرعي المذكور. و الالتزام بذلك التزام صريح بتحريف القرآن

١- صحيح مسلم: ١٦٧/٤.

٢- أصول السرخسي: ٧٨/٢ - ٨٠.

وحاشاه من كتاب إلهي خالد مضمون بالحفظ مع الخلود.

قال السرخسي: «إنَّ صوم كفارة اليمين ثلاثة أيَّام متتابعة، بقراءة ابن مسعود: «فصيام ثلاثة أيَّام متتابعات». وقد كانت هذه قراءة مشهورة إلى زمن أبي حنيفة، ولكن لم يوجد فيها النقل المتواتر، الذي يثبت بمثله القرآن، وابن مسعود لا يشكُّ في عدالته وإتقانه، فلا وجه لذلك إلا أن نقول: كان ذلك ممَّا يتلى في القرآن - كما حفظه ابن مسعود - ثمَّ انتسخت تلاوته في حياة رسول الله ﷺ بصرف القلوب عن حفظها إلا قلب ابن مسعود ليكون الحكم باقياً بنقله، فإنَّ خبر الواحد موجب للعمل به، وقرأته لاتكون دون روايته، فكان بقاء هذا الحكم بعد نسخ التلاوة بهذا الطريق»^(١) ولا يخفى سخافة هذا الاستدلال.

الثالث: نسخ الحكم دون التلاوة: وذلك بأن تبقى الآية ثابتة في الكتاب يقرؤها المسلمون عبر العصور سوى أنَّها من ناحية مفادها التشريعيِّ منسوخة، لا يجوز العمل بها بعد مجيء الناسخ القاطع لحكمها، وهذا النوع من النسخ هو المعروف بين العلماء والمفسرين واتفق الجميع على جوازه إمكاناً وعلى تحقُّقه بالفعل أيضاً حيث توجد في القرآن الحاضر آيات منسوخة وآيات ناسخة. وكانت لهذا النوع من النسخ أنحاء ثلاثة، وقع الكلام في إمكان بعضها:

الأول: أن ينسخ مفاد آية كريمة بسنة قطعية أو إجماع محقق، كقوله

تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾، ^(١) فإنه - بظاهره - لا يتنافى مع قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، ^(٢) و قوله: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ﴾، ^(٣) غير أن السنة القطعية وإجماع المسلمين أثبتا نسخ الأول بالأخيرين.

الثاني: أن ينسخ مفاد آية بآية أخرى، بحيث تكون الثانية ناظرة إلى مفاد الأولى ورافعة لحكمها بالتنصيص، و لولا ذلك لم يكن موقع لنزول الثانية و كانت لغواً. مثلاً: قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾ ^(٤) أوجب التصديق بين يدي مناجاة الرسول ﷺ، و نسخته قوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾. ^(٥) و هذا النحو من النسخ لم يختلف فيه أحد.

الثالث: أن تنسخ آية بأخرى من غير أن تكون إحداها ناظرة إلى الأخرى سوى أنهم وجدوا التنافي بين الآيتين، بحيث لم يمكن الجمع بينهما

١ - البقرة: ٢٤٠.

٢ - البقرة: ٢٣٤.

٣ - النساء: ١٢.

٤ - المجادلة: ١٢.

٥ - المجادلة: ١٣.

تشريعياً و من ثم أخذوا الثانية المتأخرة نزولاً ناسخاً للأولى.

و يجب أن يكون التنافي بين الآيتين كلياً - على وجه التباين الكلي - لا جزئياً و في بعض الوجوه، و يشترط في هذا القسم الثالث، وجود نصّ صحيح و أثر قطعيّ صريح، يدعمه إجماع القدامى، إذ من الصعب جداً الوقوف على تاريخ نزول آية في تقدّمها و تأخرها، و لا عبرة بثبت آية قبل أخرى في المصحف، إذ كثير من آيات ناسخة هي متقدّمة في ثبوتها على المنسوخة، كما في آية العِدَد برقم: ٢٣٤ من البقرة و هي ناسخة لآية الإمتاع إلى الحول برقم: ٢٤٠ من نفس هذه السورة، و هذا إجماع.

كما أن التنافي - على الوجه الكلي - لا يمكن القطع به بين آيتين قرآنيتين سوى عن نصّ معصوم ﷺ، لأنّ للقرآن ظاهراً و باطناً و محكماً و متشابهاً و ليس من السهل الوقوف على كنه آية مهما كانت محكمة.

إشكال: إنّ الالتزام بوجود آيات ناسخة و آيات منسوخة في القرآن يستدعي وجود تناف بين آياته الكريمة، الأمر الذي يناقضه قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(١).

جواب: إنّ الاختلاف الذي تنفيه الآية الكريمة هو ما إذا كان حقيقياً في ظرف الواقع، أمّا إذا كان شكلياً و في ظاهر الأمر - كما بين الناسخ والمنسوخ - فلا تناقضه الآية. مثلاً: يشترط في الاختلاف الحقيقي،

(التناقض)، أمور ثمانية،^(١) منها: وحدة الزمان و وحدة الملاك والشرط، وإذا تخلف أحدها فلا تنافي ولا اختلاف، كما في الناسخ، ظرفه متأخر و ملاكه مصلحة أخرى، تبدلت عن مصلحة سابقة كانت مستدعية لذلك الحكم المنسوخ.

إشكال آخر: ما هي الفائدة وراء ثبت الآية المنسوخة في القرآن؟
جواب: لا تنحصر فائدة آية قرآنية في الحكم التشريعي فقط، بل للآية أهداف كثيرة، منها - مضافة إلى الإعجاز والتحدّي العام - الدلالة على مراحل الدعوة الإسلامية.

الأسئلة

١. عرّف النسخ.
٢. لم لا يكون رفع الحكم عن بعض أفراد الموضوع العام نسخاً؟
٣. هل ارتفاع التكليف عند الحرج أو الاضطرار يكون نسخاً؟ لماذا؟
٤. لم لا يصحّ النسخ - بمعناه الحقيقي - على الله تعالى؟ بيّن ذلك.
٥. ما الفرق بين النسخ و البداء؟
٦. ما الفرق بين النسخ والتخصيص؟
٧. أذكر شروط النسخ في القرآن.

٨. ما المراد من تحقق التنافي بين تشريعين؟ مثل لذلك.
٩. لماذا لا تكون آية القواعد من النساء ناسخة لآية الغصّ؟
١٠. هل النسخ يتعلّق بالتشريعات أو بالأخبار أو بالتكوينيات؟
١١. هل ارتفاع الإباحة الأصلية بحدوث التشريع يكون نسخاً؟ لماذا؟
١٢. أذكر صنوف النسخ في القرآن إجمالاً.
١٣. ما المراد من نسخ الحكم والتلاوة معاً؟ و بم استدلّ القائلون بهذا النسخ؟ و ما الجواب على ذلك؟
١٤. ما المراد من نسخ التلاوة دون الحكم؟ و هل يكون شيء من ذلك في القرآن؟ بيّن ذلك؟
١٥. ما المراد من نسخ الحكم دون التلاوة؟ و هل يكون شيء من ذلك في القرآن؟
١٦. أذكر أنحاء نسخ الحكم دون التلاوة و مثل لذلك.
١٧. هل الالتزام بالنسخ يستدعي وجود التنافي بين آيات القرآن؟ بيّن ذلك.
١٨. ما هي الفائدة وراء ثبت الآية المنسوخة في القرآن؟

المحكم والمتشابه

الإحكام: هو الإتقان، يوصف به الكلام إذا كان ذا دلالة واضحة، بحيث لا يحتمل وجوهاً من المعاني. مأخوذ من الحَكَم - بالفتح - بمعنى المنع والسدّ، ومنه حَكَمَة اللجام - بفتحات - ما أحاط بحنكى الفرس، سميت بذلك لأنّها تمنعه من الجري الشديد، قاله ابن فارس. فإحكام الكلام: إتقانه تعبيراً وأداءً بالمقصود. وهذا كأكثر آيات التشريع والمواعظ والآداب.

والتشابه: مأخوذ من تشابه الوجوه، أي تماثل بعضها مع البعض، بحيث يحتمل وجوهاً من المعاني، ومن ثمّ كان خفاء في وجه المقصود ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾^(١) قال الراغب: «المحكم ما لا تعرض فيه شبهة، لا من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى، والمتشابه ما لا يبنىء ظاهره عن المراد».

و عليه فالمتشابه - حسب المصطلح القرآني - هو اللفظ المحتمل لوجوه من المعاني وكان موضع ريب و شبهة، و من ثمّ فهو كما يصلح للتأويل إلى وجه صحيح، يصلح للتأويل إلى وجه فاسد، و لأجل هذا الاحتمال وقع مطمع أهل الزيغ والفساد، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله إلى ما يتوافق مع أهدافهم الضالّة.

والتفسير هو كشف القناع عن اللفظ المشكل - أي المبهم - سواء أكان متشابهاً أم لم يكن والتأويل هو إرجاع الكلام إلى أحد محتملاته العقلانيّة و لو كان - في ظاهره - واضح المدلول.

عوامل التشابه و عوامل الإبهام:

من أهمّ عوامل التشابه هو دقّة المعنى و علوّ مستواه عن المستوى العامّ مضافاً إلى رقة التعبير و جزالة الأداء كما في قوله تعالى: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»^(١) فقد وقع فيها تشبيه ذاته المقدّسة بالنور، و هو أدقّ تعبير في تقريب ذاته المقدّسة إلى أفهام العامّة، إذ لو قيل للجمهور: «الله تعالى لا ماهيّة له، و لا هو جسم و لا فيه خواصّ الجسم»، لم يقتنعوا. كيف لا ماهية له و لا جسم؟ فإذا قيل لهم: «إنّه نور»، اقتنعوا، في حين أنّ نفس الإجابة صحيحة يعرفها الراسخون في العلم، إذ كما أنّ النور - في المحسوس - غير قابل للإدراك ذاتاً، و إنّما يحسّ به من قبل إنارته للأشياء، كذلك

وجوده تعالى - في غير المحسوس - لا يدرك هو، وإنما يدرك بإفاضة الوجود على الموجودات، فالله تبارك و تعالى يتجلّى من خلال كلّ موجود وليس يُدرك ذاتاً، كالنور سبب لإدراك الأشياء و تعجز الأبصار عن إدراكه بالذات. (١)

و أمّا عوامل الإبهام المحوجة إلى التفسير، فتعود إلى جهات أخرى: منها: غرابة الكلمة عن المؤلف العام، نظراً لاختصاص استعمالها ببعض القبائل دون بعض، فجاء القرآن ليوحد اللغة باستعمال جميع لغات العرب، من ذلك «صَلْدًا» بمعنى «نَقِيًّا» في لغة هذيل، و «الْمِنْسَاءُ» بمعنى «العصا» في لغة حضرموت و غير ذلك.

و منها: إشارات عابرة جاءت في عرض الكلام، بحيث يحتاج فهمها إلى درس عادات و مراجعة تاريخ، كالنسيء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾، (٢) أو تعابير إجمالية يحتاج الوقوف على تفاصيلها إلى مراجعة السنّة و أقوال السلف، كقوله تعالى ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ و ﴿آتُوا الزَّكَاةَ﴾ و ﴿لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ و أمثال ذلك.

و منها: تعابير عامّة صالحة لمعاني لا يعرف المقصود منها إلا بمراجعة ذوي الاختصاص، كالبرهان في سورة يوسف: ﴿لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ (٣)

١- راجع: الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد: ص ٩٢-٩٣.

٢- سورة براءة: ٣٧.

٣- يوسف: ٢٤.

والكوثر في: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾^(١) و أمثال ذلك.

ومنها: استعارات بعيدة الأغوار، يحتاج البلوغ إليها إلى تعمق كثير،
 كقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ
 أَرْجُلُهُمْ﴾^(٢). ونحو ذلك.

وعليه فبين عوامل التشابه وعوامل الإيهام فرق ولا يشبهه مورد
 أحدهما بالآخر وإن كانا يشتركان في خفاء المراد بالنظر إلى ذات اللفظ.

هل في القرآن متشابه؟

لا شك أن القرآن كما هو مشتمل على آيات محكمات في أكثرية غالبية،
 مشتمل على آيات متشابهات في عدد قليل. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ
 عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾^(٣).
 سؤال: هل كانت جميع آي القرآن محكمات؟ فكان ذلك أسلم من
 الالتباس وأقرب إلى طرق الاهتداء العام.

جواب: إن وقوع التشابه في القرآن - الكتاب السماوي الخالد - شيء كان
 لا محيص عنه، مادام كان يجري في تعابيره الرقيقة مع أساليب القوم، في
 حين سمو محتواه عن مستواهم الهابط. القرآن جاء بمفاهيم حديثة كانت
 غريبة في طبيعة المجتمع البشري آنذاك، ولا سيما جزيرة العرب البعيدة عن

١- الكوثر: ١.

٢- يس: ٦٥.

٣- آل عمران: ٧.

أنحاء الثقافات، في حين التزامه - في تعبيراته الكلامية - نفس الأساليب التي كانت دارجة ذلك العهد.

كانت الألفاظ والكلمات - التي كانت العرب تستعملها في محاوراتها - محدودة حسبما كانت العرب تألفه من معان محسوسة أو قريبة من الحسّ و مبتذلة إلى حدّ ما. فجاء استعمالها من قبل القرآن غريباً عن المألوف العام. و من ثمّ قصرت أفهامهم عن إدراك حقائقها ماعدا ظواهر اللفظ والتعبير. إذ كانت الألفاظ تقصر بالذات عن أداء مفاهيم لم تكن تطابقها، و من ثمّ كان اللجوء إلى صنوف المجاز و أنواع الاستعارات أو الإيفاء بالكناية و دقائق الإشارات. الأمر الذي قرّب المفاهيم القرآنية إلى مستوى أفهام العامة من جهة و بعدها من جهة أخرى. قرّبها من جهة إخضاعها لقوالب لفظية كانت مألوفة لدى العرب. و بعدها حيث سموّ المعنى كان يأبى الخضوع لقوالب لم تكن موضوعة لمثله. هذا هو السبب الأقوى لوقوع التشابه في تعبيرات القرآن بالذات. مثلاً: جاء التعبير المجازي في آيتين لاختلفان من حيث الأداء والتعبير، غير أنّ إحداها لما كانت تعبر عن معنى هو فوق مستوى العامة، حصل فيها التشابه، أمّا الأخرى فكانت تعبيراً عن معنى محسوس، ومن ثمّ لم يقع فيها إشكال. فقوله تعالى: «إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ»^(١) فيها مجاز الحذف، أي «إلى رحمة ربّها ناظرة» كما في آية أخرى نظيرتها: «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ»^(٢) أي «واسأل أهل القرية»، غير أنّ الأولى صارت

١ - القيامة: ٢٣.

٢ - يوسف: ٨٢.

متشابهة، لقصور أفهام العامة عن إدراك مقام الألوهية، فحسبوا منها جواز رؤيته تعالى. أمّا الآية الثانية فلم تتوقّف في فهم حقيقتها، لأنّها في معنى محسوس.

و هناك عامل آخر كان ذا أثر في إيجاد التشابه في غالب الآيات الكريمة، إذ لم تكن متشابهة من قبل، وإنّما حدث التشابه فيها على ظهور مذاهب جدليّة، بعد انقضاء القرن الأوّل الذي مضى بسلام. مثلاً: لما سمعت العرب قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾،^(١) ربّما لا تفهم منه سوى استقلاله تعالى بملكوت السماوات والأرض و تدبيره لشؤون هذا العالم نظير قول شاعرهم:

ثُمَّ اسْتَوَىٰ بِشَرْ عَلَى الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُّهْرَاقٍ
لكنّ الأشاعرة - و من ورائهم سائر أهل التشبيه - أبوا إلاّ تفسيره بالاستقرار على العرش جلوساً متربّعاً فوق السماوات العلى، و قد ينزل إلى السماء الدنيا ليطلع على شؤون خلقه فيغفر لهم و يجيب دعاءهم، إذ لا يمكنه ذلك و هو متربّع على كرسيّه فوق السماوات.^(٢)

حقيقة التأويل

التأويل يستعمل بمعنى توجيه المتشابه، و هو تفعيل من الأوّل بمعنى الرجوع، لأنّ المؤوّل عندما يُخَرَّج للمتشابه وجهاً معقولاً، هو آخذ بزمam

١ - يونس: ٣٠.

٢ - راجع: الإبانة، ٣٥ فما بعد. و رسالة الردّ على الجهمية للدارمي، ص ١٣ فما بعد.

اللفظ ليعطفه إلى الجهة التي يحاول التخريج إليها و من ثم يستعمل في تبرير العمل المتشابه أيضاً كما في قصة خضر عليه السلام، قال لصاحبه: «سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا»^(١) أي: سأطلعك على السرّ المبرّر لأعمال أثارت شكوكك ودعتك إلى الاعتراض.

إذن فكلّ لفظ أو عمل متشابه - أي مثير للريب - إذا كان له توجيه صحيح، فهذا التوجيه تأويله لا محالة. و عليه فالفرق بين التفسير والتأويل هو أنّ الأوّل توضيح ما لجانب اللفظ من الإبهام، والثاني توجيه ما فيه من مثار الريب، و قد سبق ما بين عوامل الإبهام والتشابه من فرق.

و قد اصطلحوا - أيضاً - على استعمال التأويل في معنى ثانويّ للآية، فيما لم تكن بحسب ذاتها ظاهرة فيه، و إنّما يتوصّل إليه بدليل خارج، و من ثمّ يعبر عنه بالبطن، كما يعبر عن تفسيرها الأوّلي بالظهر، فيقال: «تفسير كلّ آية ظهرها و تأويلها بطنها». و التأويل بهذا المعنى الأخير عامّ لجميع آي القرآن، كما روي عن النبي ﷺ أنّه قال: «ليس من القرآن آية إلّا و لها ظهر و بطن»^(٢) و قال الإمام الباقر عليه السلام: «ظهر القرآن الذين نزل فيهم، و بطنه الذين عملوا بمثل أعمالهم»^(٣) فقد جاء التنزيل في كلامه ﷺ بمعنى التفسير، أي إنّ نلاية مورد نزول يكشف عن مدلولها الأوّلي المنصرم و

١ - الكهف: ٧٨.

٢ - بحار الأنوار: ١٥٥/٣٣.

٣ - تفسير العياشي: ١/ ١١، بحار الأنوار: ٩٤/٩٢ رقم ٤٦.

يعبر عنه بسبب النزول، ولا غنى للمفسر عن معرفة أسباب النزول في كشف إبهام الآية، كما في آية النسيء - التوبة: ٣٧ - وغيرها.

نعم هناك عموم ثابت أبدي تنطوي عليه الآية، وبذلك تشمل عامة المكلفين مع الأبدية وهو بطنها وتأويلها الذي يعرفه الراسخون في العلم، ولولا ذلك لبطلت الآية. قال الإمام الباقر عليه السلام: «و لو أن الآية إذا نزلت في قوم ثم مات أولئك القوم ماتت الآية، لما بقي من القرآن شيء ولكن القرآن يجري أوله على آخره مادامت السماوات والأرض، ولكل قوم آية يتلونها هم منها من خير أو شر». ^(١) فقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ^(٢) نزلت رادعة لعادة جاهلية، كان الرجل إذا أحرم نقب في مؤخر بيته نقباً، منه يدخل ويخرج. وهذه العادة أصبحت لا وجود لها بعد أن باد أهلها. غير أن الآية لم تمت بذلك وإنما بقي عموم ردعها عن إتيان الأمور من غير وجوها بصورة عامة ^(٣) فهذا تأويلها المنطوي عليه الآية، يعمل بها مع الأبد.

و من ذلك تأويل الرؤيا لأنته معنى خفي باطن لا يعرفه سوى الذين أتوا العلم. وقد استعمل التأويل في تعبير الرؤيا في القرآن في ثمانية مواضع من سورة يوسف: ٦، ٢١، ٣٦، ٣٧، ٤٤، ٤٥، ١٠٠، ١٠١.

١ - تفسير العياشي: ١/ ١٠، رقم ٧. وتفسير الصافي: ١٤/ ١.

٢ - البقرة: ١٨٩.

٣ - راجع: تفسير شبر: ٦٧، طبعة الكشميري.

و استعمل بمعنى «مآل الأمر» في خمسة مواضع: النساء: ٥٩،
 الإسراء: ٣٥، الأعراف: ٥٣، مكررة، يونس: ٣٩.
 و بمعنى «توجيه التشابه» في أربعة مواضع: آل عمران: ٧ مكررة،
 الكهف: ٧٨، ٨٢.
 أمّا استعماله بمعنى «البطن» فقد جاء في الآثار - كما تقدّم - و قد أخذ
 منه تعبير الرؤيا كما نبتنا.

هل يعلم التأويل غير الله؟

لا شك أن القرآن كما هو مشتمل على آيات محكمات مشتمل على
 آيات متشابهات. و لا محالة يقصدها أهل الأهواء والأطماع الفاسدة، ابتغاء
 تأويلها و انحرافها إلى ما يلتئم مع أهدافهم الباطلة، و قد جاء التصريح
 بذلك في نفس الآية: «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ
 ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ»^(١). فلو لا وجود علماء ربّانيين في كلّ عصر و
 مصر ينفون عنه تأويل المبطلين - كما في الحديث الشريف^(٢) - لأصبح
 القرآن معرضاً للفساد في الدين. فيجب - بقاعدة اللطف - وجود علماء
 عارفين بتأويل المتشابهات على وجهها الصحيح، ليقفوا سدّاً منيعاً في وجه
 أهل الزيغ والباطل دفاعاً عن الدين و عن تشويه آي الذكر الحكيم.

١ - آل عمران: ٧.

٢ - راجع: سفينة البحار: ٥٥ / ١.

و أيضاً لو كانت الآي المتشابهة ممّا لا يعرف تأويلها إلا الله، لأصبح قسط كثير من آي القرآن لافائدة في تنزيلها سوى تردد قراءتها، و قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(١)، و لنفرض أنّ الأمة - عندما وقفت على آية متشابهة - راجعت علماءها في فهم تلك الآية، فأبدوا عجزهم عن معرفتها، فذهبوا - والعلماء معهم - إلى أحد الأئمة المعصومين عليه السلام خلفاء الرسول ﷺ فكان الجواب اختصاص علمها بالله تعالى، لكنهم لم يقتنعوا بهذا الجواب فذهبوا جميعاً إلى رسول الله ﷺ سائلين: «ما تفسير آية أنزلها الله إليك لنتدبرها»؟ فإذا النبي ﷺ لا يفرق عن آحاد أمته في الجهل بكتاب الله العزيز الحميد! أو ليست الأمم تسخر أمة عمّها و علماءها و أئمتها و نبيّها الجهل بكتابها الذي هو أساس دينها مع الخلود؟ أو ليس النبي ﷺ هو الذي أرجع أمته إلى القرآن إذا ما التبس عليهم الأمور كقطع الليل المظلم؟^(٢) فبماذا يرجعون إذا التبس عليهم القرآن ذاته؟ مضافاً إلى أنّنا لم نجد من علماء الأمة - منذ العهد الأوّل فإلى الآن - من توقّف في تفسير آية قرآنيّة بحجّة أنّها من المتشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله.

سؤال: ماذا يستفاد من الآية: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ

فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا»^(١) هل الواو للتشريك أو الإِسْتِناف؟

جواب: آمّا بالنظر إلى ذات الآية، فلعلّ دلالتها على التشريك واضحة، لأنّ مناسبة الحكم والموضوع تستدعي أن يكون المنسوب إلى الراسخين في العلم من جنس ما يتناسب مع المعرفة الكاملة، أمّا الإِيمان الأعمى فلا مناسبة بينه وبين الرسوخ في العلم. وعليه فرعاية المناسبة هي التي تستدعي وجوب التشريك، ليكون الراسخون في العلم -أيضاً- عالمين بتأويل المتشابهات.

واعترض: بأنّ مقتضى التشريك هو تساوي العلماء مع الله و لو في هذه الجهة الخاصّة وقد قال تعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»^(٢).
و أجيب: بأنّ شرف العلم هو الذي رفعهم إلى هذه المنزلة المنيعة كما في قوله: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ»^(٣)

واعترض آخر: ماذا تكون موقعيّة قوله: «يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ» إذا اعتبرنا «الرَّاسِخُونَ» عطفاً على «الله»؟
والجواب: أنّها جملة حالّية، حالاً توضيحياً من الراسخين.

١- آل عمران: ٧.

٢- الشورى: ١١.

٣- آل عمران: ١٨.

من هم الراسخون في العلم؟

الراسخون في العلم هم العلماء الصادقون الذين عرفوا قواعد الشريعة و موازين الشرع و مقاييسه الدقيقة، وإذا عرضت عليهم متشابهات الأمور هم قادرون على استنباط حقائقها و على أوجه تخريجاتها الصحيحة. و من ثم فإنهم يعلمون تأويل المتشابهات بفضل رسوخهم في فهم حقيقة الدين بعناية رب العالمين ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(١) ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾^(٢) ﴿وَالَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾^(٣) ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾^(٤) أو ليس العلم بحقائق الشريعة البيضاء من الماء الغدق؟ إنها شربة حياة العلم، يفيضها الله تعالى على من يشاء من عباده المؤمنين، و يطلعهم على أسرار الملك والملوك في العالمين.

و أول الراسخين في العلم هو رسول الله ﷺ ثم باب مدينة علمه أمير المؤمنين عليه السلام والأوصياء من بعده صلوات الله عليهم أجمعين. و هكذا استمرت بين المسلمين - عبر العصور - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فثبتوا واستقاموا على الطريقة فسقاهاهم ربهم ماءً غدقاً. قال رسول الله ﷺ :

١- العنكبوت: ٦٩.

٢- مريم: ٧٦.

٣- فصلت: ٣٠.

٤- الجن: ١٦.

«يحمل هذا الدين في كلّ قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين»^(١). وقد جاء التعبير عن علماء أهل الكتاب الربّانيين بالراسخين في العلم «لَكِنَّ الرّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ»^(٢). دليلاً على أنّ العلماء العاملين الذين ساروا منهج الدين القويم، وكمّلت معرفتهم بحقائق الشريعة الطاهرة، هم راسخون في العلم ويعلمون التأويل. فعن ابن عباس تلميذ أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّا مَحْمَنٌ يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ»^(٣). وفي وصيّة النبي ﷺ: «فما شئتبه عليكم فاسألوا عنه أهل العلم يخبرونكم»^(٤). فلولا أنّ في أمته علماء عارفين بتأويل المتشابهات لما أوصى ﷺ بمراجعتهم في حلّ متشابهات الأمور.

الأسئلة

١. ما معنى المحكم والمتشابه لغة؟
٢. عزّف المتشابه اصطلاحاً واذكر أهمّ عوامل التشابه مع ذكر المثال.
٣. ما المراد من التفسير؟
٤. اذكر عوامل الإيهام المحوّة إلى التفسير.

١- سفينة البحار: ١/ ٥٥.

٢- النساء: ١٦٢.

٣- الدر المنثور للسيوطي: ٧/ ٢.

٤- آلاء الرحمن للبلاغي: ج ١، ص ٢٥٨.

٥. هل في القرآن متشابه؟ لماذا؟
٦. هل المذاهب الجدلية أثّرت في تشابه الآيات؟ مثّل لذلك.
٧. ما الفرق بين التأويل والتفسير؟
٨. أذكر المعاني الأربعة للتأويل.
٩. هل يعلم التأويل غير الله؟
١٠. من هم الراسخون في العلم؟

صيانة القرآن من التحريف

التحريف في اللغة:

تحريف الشيء: إمالته والعدول به عن موضعه إلى جانب، مأخوذ من حَرَفَ الشيء بمعنى طرفه و جانبه. قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَغْبِطُ اللَّهَ عَلَى حَرَفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾^(١) قال الزمخشري: أي على طرف من الدين لا في وسطه و قلبه. و هذا مثَلٌ لكونهم على قلق و اضطراب في دينهم، لا على سكون و طمأنينة، كالذي يكون على طرف العسكر، فإن أحسَّ بظفر و غنيمة قرَّ واطمأنَّ، و إلا فرَّ و طار على وجهه.^(٢)

و تحريف الكلام: تفسيره على غير وجهه، أي: تأويله بما لا يكون ظاهراً فيه، تأويلاً من غير دليل. والتحريف بهذا المعنى إنما هو تغيير في

١- الحج: ١١.

٢- الكشاف: ١٤٦/٢.

معنى الكلم، كما قال تعالى: «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ»^(١)، أي: يفسّرونها على غير وجهها بما لادلالة للكلام وضعاً فيه. وهذا تحريف معنوي لا غير. قال الطبرسي رحمته الله في تفسير قوله تعالى: «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ»: «أي: يفسّرونها على غير ما أنزل و يغيّرون صفة النبي صلى الله عليه وآله فيكون التحريف بأمرين، أحدهما: سوء التأويل، والآخر التغير والتبديل، كقوله تعالى: «وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ مَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»^(٢).

التحريف في الاصطلاح:

التحريف في الاصطلاح جاء على سبعة وجوه:

١ - تحريف مدلول الكلام: وهو تفسيره على غير وجهه بمعنى تأويله بما لا يكون اللفظ ظاهراً فيه بذاته لا بحسب الوضع ولا بحسب القرائن المعهودة و من ثمّ فهو تأويل باطل، المعبر عنه بالتفسير بالرأي المنهي عنه في لسان الشريعة المقدسة. قال عليه السلام: «من فسّر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار»^(٣).

٢ - تحريف موضعي: بأن يكون ثبت الآية أو السورة على خلاف ترتيب نزولها، وهذا في الآيات قليل نادر، لكن السور كلّها جاء ثبتها في

١- النساء: ٤٦، المائدة: ١٣.

٢- آل عمران: ٧٨، مجمع البيان: ١٧٣/٢.

٣- غوالي اللثالي: ٤/ ١٠٤، رقم ١٥٤.

المصحف على خلاف ترتيب النزول، كما تقدّم.

٣- تحريف قرائي: بأن تقرأ الكلمة على خلاف قراءتها المعهودة لدى جمهور المسلمين، وهذا كأكثر اجتهادات القراء في قراءاتهم المبتدعة لا عهد لها في الصدر الأوّل، الأمر الذي لا نجيزه بعد أن كان القرآن واحداً نزل من عند واحد كما في الحديث الشريف^(١) وقد ذكرنا ذلك في بحث القراءات.

٤- تحريف في لهجة التعبير: كما في لهجات القبائل تختلف عند النطق بالحرف أو الكلمة في الحركات وفي الأداء. الأمر الذي يجوز، مادامت بُنية الكلمة الأصليّة محتفظة لا يختلف معناها وقد نزلنا حديث الأحرف السبعة - على فرض صحّة الإسناد - على إرادة اختلاف لهجات العرب في أداء الكلمات والحروف، بل وحتى إذا لم تكن اللهجة عربيّة، فإنّ الملائكة ترفعها عربيّة كما في الحديث^(٢) نعم لا يجوز إذا كان لحناً - أي: خطأ و مخالفاً لقواعد الإعراب - قال تعالى: ﴿قَرَأْنَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾،^(٣) وقد أمرنا بقراءة القرآن عربيّة صحيحة «تعلّموا القرآن بعربيّته»^(٤) وهكذا إذا كان التحريف اللهجي مغيّراً لمعنى الكلمة فإنّه لا يجوز، ولا سيّما إذا كان عن عمدٍ و لغرض خبيث، كما كانت تفعله اليهود عند اللهج بلفظ «راعنا» فكانت تميل حركة العين إلى فوق لتصبح معنى الكلمة «شرّيرنا» حسبما

١- الكافي (الأصول): ٢/ ٦٢٧.

٢- وسائل الشيعة: ٤/ ٨٦٦، رقم ٤.

٣- الزمر: ٢٨.

٤- وسائل الشيعة: ٤/ ٨٦٥، ب ٣٠، ح ١.

ذكره الحسين بن علي المغربي^(١) وذكره القرآن في سورة البقرة (آية ١٠٢) و في سورة النساء (آية ٤٦).

٥ - تحريف بتبديل الكلم: بأن تبدّل الكلمة إلى غيرها مرادفة لها أو غير مرادفة. الأمر الذي كان يجوّزه ابن مسعود في المترادفات نظراً منه إلى حفظ المعنى المراد وأنه لا بأس باختلاف اللفظ. وقد أسبقنا عدم جواز ذلك في نصّ الوحي، لأنّ الإعجاز قائم بلفظه كما هو قائم بمعناه.^(٢)

٦ - التحريف بالزيادة: نسب إلى جماعة - كابن مسعود - أنّهم كانوا يزيدون في نصّ الوحي، لاعتقدها بأنّها من القرآن، بل لغرض إيضاح الآية ورفع الإبهام من لفظها. وهذا لا بأس به مع التزام الشرط وعدم الالتباس. وهكذا نجد زيادات تفسيرية في المأثور عن الأئمّة الصادقين عليهم السلام. ولم نجد من زعم زيادة في النصّ الموجود سوى ما يحكى عن العجاردة (أصحاب عبد الكريم بن عجرد من زعماء الخوارج) أنّهم أنكروا أن تكون سورة يوسف من القرآن، وكانوا يرون أنّها قصّة عشق لا يجوز أن تكون من الوحي.^(٣) ولهم مقالات فاسدة غير ذلك.^(٤) وسيأتي ردّ

١ - راجع: تفسير البلاغي (آلاء الرحمن): ١٣٤ / ٢.

٢ - راجع بحث القراءات.

٣ - الملل والنحل للشهرستاني: ١٢٨ / ١. لكنّ أبا الحسن الأشعري لم يتحقق عنده صحّة هذه النسبة، قال «و حكي لنا عنهم ما لم نتحقّقه: أنّهم يزعمون أنّ سورة يوسف ليست من القرآن». راجع مقالات الإسلاميين: ١٧٨ / ١.

٤ - راجع المقالات: ج ١، ص ١٧٨.

مقاتلهم. نعم كان ممّا اشتبه على ابن مسعود زعمه أنّ المعوذتين تعويذان و ليستا من القرآن و كان يقول: «لا تخلطوا بالقرآن ما ليس منه»، و كان يحكّهما من المصحف.^(١)

٧- التحريف بالنقص: إمّا بقراءة النقص، كما أثر عن ابن مسعود أنّه كان يقرأ: «والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى والذكر والأنثى» بإسقاط «ما خلّق»،^(٢) و عن الأعمش أنّه كان يقرأ: «حم سق» بإسقاط «ع» قيل: «و هكذا قرأ ابن عباس».^(٣) أو بزعم أنّ في النصّ الحاضر سقطاً، كان من القرآن فأسقط إمّا عن عمد أو عن نسيان و هذا إمّا في حرف واحد أو كلمة أو جملة كاملة أو آية أو سورة كما زعم. و كلّ ذلك ورد مأثوراً في أمّهات الكتب الحديثيّة كالصحيح الستّة وغيرهما. الأمر الذي ننكره أشدّ الإنكار، و هو الذي وقع الكلام حوله في مسألة تحريف الكتاب. و لا مجال لتغيير العبارة والقول بأنّه من منسوخ التلاوة أو منسيّها - كما التزم به بعض أئمة أهل السنّة - فإنّه من الالتواء في التعبير، و تغيير العنوان لا يغيّر الواقع المعنوي.

و مجمل القول في ذلك: أنّ ما ورد بهذا الشأن من الروايات العاميّة الإسناد، لا تعدو كونها من صنع الزنادقة و الوضّاعين المعروفين بالكذب والاختلاق. أو أنّ لها تأويلاً صحيحاً لا يمسّ جانب تحريف الكتاب. و إلاّ

١- فتح الباري بشرح البخاري: ٥٧١ / ٨.

٢- صحيح البخاري: ٢١١ / ٦، و ٣٥ / ٥.

٣- مجمع البيان: ٢١ / ٩.

فهي أوهام و خرافات لا اعتبار بشأنها أصلاً، والأكثر إنّما هو من هذا القبيل.

القرآن ولفظ التحريف:

لم يستعمل القرآن لفظ التحريف في غير معناه اللغوي، أي: التصرف في معنى الكلمة و تفسيرها على غير وجهها المعبر عنه بسوء التأويل أو التفسير بالرأى. و هو تحريف معنويّ ليس سواه. و قد أسبقنا الكلام عن قوله تعالى: «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ»^(١) قوله «عَنْ مَوَاضِعِهِ» أي بعد أن كان الكلام مستعملاً في معناه الحقيقي الظاهر فيه بنفسه أو المستعمل فيه بدلالة القرائن المعهودة، فجاء التحريف بعد ذلك خيانة في أمانة الأداء والبلاغ. و في قوله تعالى: «مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ»^(٢) تصريح بهذا المعنى، حيث إنّ التحريف إزاحة للفظ عن موضعه الذي هو معناه.

و في سورة البقرة: «وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ»^(٣) أي: جاء تحريف المعنى إلى ما أرادوه بعد علمهم بالمعنى الحقيقي المراد الذي كان على خلاف مصالحهم فيما زعموا. ومن ثمّ فهو من سوء التأويل كما عبّر عنه الطبرسي و من قبله الشيخ في التبيان. قال: «فالتحريف يكون بأمرين: بسوء التأويل و بالتغيير

١- النساء: ٤٦، المائدة: ١٣.

٢- المائدة: ٤١.

٣- البقرة: ٧٥.

والتبديل»،^(١) أي: بتغيير لهجة الكلام بحيث يغيّر المعنى بذلك، كما جاء في سورة آل عمران: ٧٨.

والخلاصة: كان تحريف العهدين الذي أشار إليه القرآن إمّا بسوء التأويل - أي التصرف في تفسيرهما بغير الحقّ، من غير أن يمسّوا يداً إلى لفظ الكتاب - أو مع تغيير في لهجة التعبير عند النطق بالكتاب، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.^(٢) لأنّ اللفظ إذا لهج به على غير لهجته الأولى لم يكن نفسه وإنّما هو غيره، وإنّما كانوا يعمدون إلى ذلك ذريعة لكتمان الحقيقة وإخفاء البشائر بمقدم نبيّ الإسلام ﷺ.

أمّا التحريف بمعنى الزيادة أو النقصان أو تبديل الكلم إلى كلمات غيرها - الذي هو المعنى الاصطلاحي - فلم يعهد استعماله في القرآن، حسبما عرفت.

دلائل بطلان شبهة التحريف

١ - بديهية العقل: من بديهية العقل أنّ مثل القرآن الكريم يجب أن يسلم عن احتمال أيّ تغيير أو تبديل فيه، حيث إنّّه كان الكتاب الذي وقع - من

١ - التبيان: ٣ / ٤٧٠.

٢ - آل عمران: ٧٨.

أول يومه - موضع عناية أمّة كبيرة واعية، ولا عجب فإنّه المرجع الأوّل لجميع شؤونهم في الحياة الدينيّة والسياسيّة والاجتماعيّة، فكان أساس الدين ومبنى الشريعة وركن الإسلام. وهو المنبع الأصل لأُمّهات مسائل فروع الدين وأصوله. ومن ثمّ كان الجميع في حراسته والمواظبة على سلامته وبقائه مع الخلود.

قال شيخ الفقهاء، كاشف الغطاء: «وما ورد من أخبار النقيصة تمنع البديهة من العمل بظاهرها ولا سيما ما فيه من نقص ثلث القرآن أو كثير منه. فإنّه لو كان ذلك لتواتر نقله، لتوفّر الدواعي عليه ولا تخذه غير أهل الإسلام من أعظم المطاعن على الإسلام وأهله... كيف يكون ذلك وكانوا شديدي المحافظة على ضبط آياته وحروفه، وخصوصاً ما ورد أنّه صرّح فيه بأسماء كثير من المنافقين؟ وكيف يمكن ذلك وكان من حكمة النبي ﷺ الستر عليهم ومعاملتهم معاملة أهل الدين؟». (١) وأخيراً قال: «باللعجب من قوم يزعمون سلامة الأحاديث وبقائها محفوظة، وهي دائرة على الألسن ومنقولة في الكتب، في مدّة ألف ومائتي سنة، وأنها لو حدث فيها نقص لظهر واستبان وشاع، لكنهم يحكمون بنقص القرآن، وخفي ذلك في جميع الأزمان». (٢)

٢ - ضرورة تواتر القرآن: من الدلائل ذوات الشأن النافية لشبهة

١ - كشف الغطاء: كتاب القرآن من كتاب الصلاة، المبحث السابع والثامن، ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

٢ - عن كتابه «الحقّ المبين»: ١١.

التحريف هي مسألة «ضرورة كون القرآن متواتراً» في مجموعه و في أبعاضه، في سوره و آياته، حتّى في جملة التركيبية و في كلماته و حروفه بل و حتّى في قراءته و هجائه على ما أسلفنا في بحث القراءات، و قلنا: «إنّ الصحيح من القراءات هي القراءة المشهورة التي عليها جمهور المسلمين و قد انطبقت على قراءة عاصم بروايه حفص».

فإنّ هذا ممّا يرفض احتمال التحريف، لأنّ ما قيل بسقوطه و أنّه كان قرآنًا يتلى إنّما نقل إلينا بخبر الواحد، و هو غير حجة في هذا الباب، حتّى لو فرض صحّة إسناده.

هكذا استدللّ العلامة الحلي^(١) و جماعة من المحققين كالسيد المجاهد محمد بن علي الطباطبائي^(٢) والفقيه المحقق المولى أحمد الأردبيلي^(٣) والمحقق المتبّع السيد محمد جواد العاملي^(٤) و غيرهم.

٣- مسألة الإعجاز: ممّا يتنافى مع احتمال التحريف في كتاب الله هي مسألة الإعجاز المتحدّئ به. و قد اعتبره العلماء من أكبر الدلائل على نفي التحريف. أمّا احتمال الزيادة - كما احتمله أصحاب ابن العجرد من الخوارج، قالوا بزيادة سورة يوسف في القرآن، لأنّها قصّة عشق و لا يجوز

١- راجع: البرهان للبروجردى: ١١١.

٢- راجع: البرهان للبروجردى: ١٢٠-١٢١.

٣- راجع: مجمع الفائدة: ج ٢، ص ٢١٨.

٤- راجع: مفتاح الكرامة: ٢/ ٣٩٠.

أن تكون وحياً،^(١) وكما زعمه ابن مسعود بشأن سورتي المَعْوِذَتَيْنِ^(٢) - فهو احتمال باطل، إذ يستدعي ذلك أن يكون باستطاعة البشرية أن تقوم بإنشاء سورة كاملة تماثل سور القرآن تماماً. وقد قال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾،^(٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾،^(٤) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾،^(٥) ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾.^(٦) فهذا التحدي الصارخ يبطل دعوى كل زياده في سور القرآن وآياته الكريمة.

وكذا احتمال التبديل، فإنَّ المتبدَّل لا يكون من كلامه تعالى وإنما هو من كلام مبدِّله والكلام يسند إلى قائله إذا كان مجموع الكلمات مستندة إليه لا البعض دون البعض. إذن فاحتمال التبديل ولو في بعض كلمات القرآن يبطل إسناد مجموع الكتاب إليه سبحانه وتعالى. ومن ذلك تعلم فساد ما قيل في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٧): إنها متبدِّلة من

١- الملل والنحل للشهرستاني: ١/١٢٨.

٢- فتح الباري لابن حجر: ٨/٥٧١.

٣- الإسراء: ٨٨.

٤- هود: ١٣.

٥- يونس: ٣٨.

٦- البقرة: ٢٣.

٧- آل عمران: ١١٠.

«كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ»، كما زعمه الشيخ النوري والسيد الجزائري^(١) و غيرهما. وزعموا في كثير من كلمات قرآنية مثل ذلك وقالوا: «و مثل هذا كثير»^(٢). كل ذلك باطل لأنته ورد بخبر واحد و هو غير حجة في باب القطعيّات. وهكذا التبديل الموضوعي يخلّ بنظم الكلام المبتني على الإعجاز نظماً و أسلوباً. قالوا في قوله تعالى: ﴿أَقَمْنِ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾^(٣): «إنها متغيرة من «و يتلوه شاهد منه إماماً و رحمة و من قبله كتاب موسى» قالوا: «تقدّم حرف على حرف»، فذهب معنى الآية^(٤) حسب زعمهم.

و مثله النقص بإسقاط كلمة أو كلمات ضمن جملة واحدة. إنَّها إذا كانت منتظمة في أسلوب بلاغي بديع، فإنّ حذف كلمات منها يؤدّي إلى إخلال في نظمها و يذهب بروعتها الأولى و لا يدع مجالاً للتحدي بها. الأمر الذي غفل عنه زاعمو التحريف. زعموا إسقاط اسم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من مواضع من القرآن،^(٥) ذهولاً عن أنّه لو أثبتناه في تلك المواضع لذهب عنها تلك الرّوعة، في حين عدم الحاجة إلى ذكر الاسم، وإنّما هو بيان شأن النزول لا غير.

١- منبع الحياة للجزائري: ٦٧.

٢- راجع: فيما نسبوه إلى النعماني، بحار الأنوار: ٢٦/٩٠-٢٧ ط بيروت مؤسسة الوفاء.

٣- هود: ١٧.

٤- بحار الأنوار: ٢٦/٩٠-٢٧.

٥- راجع: منبع الحياة للسيد نعمة الله الجزائري: ٦٧.

و أسخف مزعومة زعمها هولاء هي سقط أكثر من ثلث القرآن - أي مايزيد على ألفي آية - من خلال آية واحدة و هي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾. ^(١) حيث إنهم زعموا عدم تناسبها مع ذيلها. ^(٢)

٤ - آية الحفظ: قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. ^(٣) هذه الآية الكريمة ضمنت بقاء القرآن و سلامته عن تطرق الحدثان عبر الأجيال. و هو ضمان إلهي لا يختلف و لا يتخلف وعداً صادقاً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾. ^(٤)

و هذا هو مقتضى قاعدة اللطف: «يجب على الله تعالى - وفق حكمته في التكليف - فعل ما يوجب تقريب العباد إلى الطاعة و بعدهم عن المعصية». و لا شك أن القرآن هو عماد الإسلام و سنده الباقي مع بقاء الإسلام، و هو خاتمة الأديان السماوية الباقية مع الخلود. الأمر الذي يستدعي بقاء أساسه و دعامته قوية مستحكمة و لا تتلهم مع عواصف أحداث الزمان. و أجدر به أن لا يقع عرضة لتلاعب أهل البدع والأهواء، شأن كلّ سند وثيق يبقّى، ليكون حجة ثابتة مع مرّ الأجيال. و هذا الضمان الإلهي هو أحد جوانب إعجاز هذا الكتاب، حيث بقاؤه سليماً على أيدي

١- النساء: ٣.

٢- منيع الحياة: ٦٦.

٣- الحجر: ٩.

٤- الرعد: ٣١.

الناس و بين أظهرهم، و ليس في السماء في البيت المعمور في حقائب محبوءة وراء الستور. ليس هذا إعجازاً إنما الإعجاز هو حفظه و حراسته في معرض عام و على ملأ الأشهاد.

فن سفه القول ما يقوله أهل التحريف: «إنه تعالى يحفظ القرآن في المواضع الذي أنزله فيه، كما كان محفوظاً في المحل الأعلى قبل نزوله. و القرآن إنما نزل به جبرئيل على قلب سيد المرسلين ليكون من المنذرين، فحله الذي أنزله تعالى فيه و وعد حفظه، هو قلبه الشريف، لا الصحف و الدفاتر و لا غير صدره ﷺ من الضمائر»^(١) و قد ذكر أهل التفسير - بشأن نزول الآية - أنه ﷺ إنما كان يخشى تلاعب أهل الأهواء بالقرآن من بعده، كما فعلوا بكتب الأنبياء السالفين. فنزلت الآية تطمئنه على حفظه و حراسته عن تناوش الأعداء خلوداً مع الأبد^(٢) و قرينة السياق أيضاً شاهدة على هذا المعنى. مضافاً إلى أن حكمة التكليف تقضي أيضاً بهذا البقاء و السلامة الأبدية. و نظير هذه الطمأنة كثير في آيات أخرى^(٣).

إشكال: إن مدعي التحريف يدّعي وجود التحريف في نفس هذه الآية، لأنّها بعض القرآن فلا يكون الاستدلال بها، فإنّه من الدور الباطل.

١- راجع: فصل الخطاب للشيخ النوري: ٣٦٠.

٢- و قد أشار إليه المحدث النوري في فصل الخطاب: ٣٦١.

٣- منها: الآية ٩٤، ٩٥ من سورة الحجر، و الآية ٦٧ من سورة المائدة و ٥٢ من سورة الحج و ١٨ من سورة الأنبياء و ١٦- ١٩ من سورة القيامة و ٦ و ٧ من سورة الأعلى.

جواب: أجاب سيّدنا الأستاذ الإمام الخوئي رحمته بما حاصله: «إنّ هذه الشبهة إنّما ترد على من لم يعترف للعترة الطاهرة مقام ولايتهم الكبرى و أنّهم عدل القرآن و قرناؤه، كما ورد في حديث الثقلين. إذ أنّهم عليهم السلام تمسّكوا بهذا الموجود من القرآن و قرّروا أصحابهم في التمسّك به والاستناد إليه، الأمر الذي يكشف عن حجّيته بالذات و وجوب التمسّك به بلا ريب». ^(١)

قلت: «هؤلاء الفئات الشاذّة إنّما وضعوا اليد على مواضع التحريف - فيما زعموا - كآية الرجم وغيرها. أمّا الآيات المثبتة في المصحف الشريف - على ما تعارف عليه المسلمون عبر القرون - فهم معترفون بصحتها وحيّاً ساهوياً. ليس فيها زيادة أو تبديل في نصّها».

٥ - نفى الباطل عنه: قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ^(٢). وعد تعالى صيانتَهُ من الضياع وسلامته من حوادث الأزمان. قوله: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾، الباطل: الفاسد الضائع: أي: لا يعرضه فساد أو نقض لا في حاضره ولا في مستقبل الأيام. و ذلك لأنّه ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ﴾ لدن ﴿حَكِيمٍ﴾، و أنّ حكمته تعالى لتبعث على ضمان حفظه و حراسته مع أبدية الإسلام. ﴿حَمِيدٍ﴾، من كان محموداً على فعّاله فلا يخلف الميعاد. و قد اعترف الخصم بأنّ مطلق التغير في القرآن يعدّ باطلاً و تنافياً مع ظاهر الآية الكريمة. سوى أنّ المقصود غير هذا المعنى. قال: «لأنّ المقصود هو

١ - البيان: ٢٢٨.

٢ - فصلت: ٤١، ٤٢.

البطلان الحاصل من تناقض أحكامه وتكاذب أخباره»^(١).

قلت: «لعلّه لم يتنبّه لموضع قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾. والباطل الذي يمكن إتيانه للكتاب هو تناول يد المحرّفين ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾»^(٢). أمّا التناقض والتكاذب في أحكامه وإخباراته فهو من الباطل المنبعث من الداخل، وقد نفاه تعالى أيضاً بقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾»^(٣). ومن ثمّ أطبق المفسّرون على أن آية نفي الباطل هي من أصرح الآيات دلالة على نفي احتمال التحريف من الكتاب فلا تناله يد مغير أبداً.

٦- العرض على كتاب الله: قال الصادق عليه السلام: «إِنَّ عَلَى كُلِّ حَقِيقَةٍ وَعَلَى كُلِّ صَوَابٍ نُورًا، فَمَا وَافَقَ كِتَابَ اللَّهِ فَخُذُوهُ وَمَا خَالَفَ كِتَابَ اللَّهِ فَدَعُوهُ»^(٤). الأمر الذي يتنافى مع احتمال التحريف في كتاب الله، وذلك من جهتين:

الجهة الأولى: أنّ المعروض عليه يجب أن يكون مقطوعاً به، لأنّه المقياس الفارق بين الحقّ والباطل ولا موضع للشكّ في نفس المقياس. إذن فلو عرضت روايات التحريف على نفس ما قيل بسقوطه لتكون موافقة له، فهذا عرض على المقياس المشكوك فيه، وهو دور باطل. وإن عرضت

١- فصل الخطاب: ٣٦١.

٢- الحجر: ٩١.

٣- النساء: ٨٢.

٤- الكافي: ٦٩/١، باب الأخذ بالسنة وشواهد الكتاب.

على غيره فهي تخالفه، قال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(١) و﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٢).

الجهة الثانية: إنَّ العرض لابد أن يكون على هذا الموجود المتواتر لدى عامة المسلمين لما ذكرناه - في الجهة الأولى - من أن المقياس لابد أن يكون متواتراً مقطوعاً به. و روايات التحريف إذا عرضت على هذا الموجود بأيدينا كانت مخالفة له، لأنّها تنفي سلامة هذا الموجود و تدلّ على أنّه ليس ذلك الكتاب النازل على رسول الله ﷺ و هذا تكذيب صريح للكتاب و مخالفة مع القرآن. هكذا استدلل المحقق الثاني (الكركي) (م ٩٤٠) ^(٣) والسيد محمد مهدي الطباطبائي (بجرا العلوم) (م ١١٥٥) ^(٤).

لكن زعم المحدث النوري أن لا منافاة بين أخبار العرض و وقوع التحريف في القرآن. فإنَّ الأمر بالعرض على كتاب الله صدر من رسول الله ﷺ حال حياته أمّا وقوع السقط والتبديل فإنما حصل بعد وفاته. ^(٥)

و هذا كلام غريب، إذ أحاديث العرض لا يختصّ صدورها عن رسول الله ﷺ بل نطق بها - دستوراً عاماً - الأئمة المعصومون ﷺ بعده أيضاً.

١- فصلت: ٤٢.

٢- الحجر: ٩.

٣- بنقل السيد شارح الوافي، أنظر: البرهان للبروجردي: ص ١١٦-١١٧.

٤- بنقل البروجردي في البرهان: ١١٨-١٢٠.

٥- راجع: فصل الخطاب: ٣٦٢ و ٣٦٣.

ثم إن النبي ﷺ قال ذلك خشية وفور الكذابة بعده، فبين للأمة طول الدهر معياراً يقيسون عليه السليم من السقيم من أحاديثه المنسوبة إليه، وليس علاجاً مؤقتاً خاصاً بحال حياته صلوات الله عليه.

٧- نصوص أهل البيت عليه السلام: لدينا كثير من أحاديث مأثورة عن أهل البيت عليه السلام تنص على صيانة القرآن من التحريف - إما تصريحاً أو تلويحاً - وأنه مصون عن التغيير نصاً، لم ينله مس سوء أصلاً. وإن نأثته الأيدي الأثيمة تأويلاً و تفسيراً بغير حق. و إليك بعضها:

١ - روي عن الإمام الباقر عليه السلام: «وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرّفوا حدوده»^(١). والمراد من «تحريف الحدود» هو تضييعها كما ورد في الحديث: «و رجل قرأ القرآن فحفظ حروفه و ضيّع حدوده»^(٢). و عليه فالمراد من «إقامة الحروف» هو حفظها عن التغيير و التبديل، كما في هذا الحديث أيضاً.

٢ - روى أبو بصير قال: سألت الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾،^(٣) و ما يقوله الناس: «ما باله لم يسمّ عليّاً و أهل بيته؟» قال عليه السلام: «إن رسول الله ﷺ نزلت عليه الصلاة و لم يسمّ لهم ثلاثاً و لا أربعاً حتّى كان رسول الله هو الذي فسّر لهم

١- روضة الكافي: ٥٣/٨، رقم ١٦. و سنده صحيح.

٢- أصول الكافي: ٦٢٧/٢، رقم ١.

٣- النساء: ٥٩.

ذلك». (١) فقد قرّر ﷺ أنه لم يأت ذكرهم في الكتاب نصّاً، وإن كانوا مقصودين بالذات من عمومات واردة في القرآن كثيراً.

٣ - روى عمار الساباطي عن الإمام الصادق ﷺ قال: «قال تعالى بشأن عليّ ﷺ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِثُ آنَاءِ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ... ويزعمون أنه ساحرٌ كذاب ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾». (٢) ثم قال ﷺ: «هذا تأويله يا عمار». (٣) وهذا الحديث قد أوضح أنّ الزيادات التي كانت قد تذكر خلال قراءات الأئمة ﷺ إنما هي زيادات تفسيرية لغرض تأويل الآية إلى أوجه دلالتها وليس كما زعمه أهل التحريف.

٤ - زاد الصدوق روايات دلّت - دلالة التزميّة - على كمال سور القرآن من غير نقص فيها، وكذا على كمال القرآن من غير نقص فيه، مثل ما دلّ على ثواب قراءة كلّ سورة، والنهي عن القرآن بين السورتين، و ثواب ختم القرآن، والنهي عن الختم بأقلّ من ثلاثة أيّام. فلو كان في السور نقص لما أمكن قراءتها أو القرآن بين السورتين، إذ على ذلك الفرض كان المقروء بعض السورة، و كان القرآن بين أبعاض السورتين، والشواب على ختم القرآن دليل على إمكان ختمه أي: تلاوة آياته و سوره أجمع، وهكذا.

١- أصول الكافي: ٢٨٦/١.

٢- الزمر: ٩.

٣- الكافي: ٤٣٢/١ - ٤٣٣، رقم ٩١.

الأسئلة

١. ما معنى التحريف لغة؟
٢. أذكر معاني التعريف اصطلاحاً.
٣. ما المراد من التحريف بمدلول الكلام؟
٤. ما هو التحريف الموضوعي؟
٥. ما المراد من التحريف القرائي؟
٦. ما هو التحريف في لهجة التعبير؟
٧. ما المراد من التحريف بتبديل الكلم؟
٨. ما هو التحريف بالزيادة؟
٩. ما المراد من التحريف بالنقيصة؟
١٠. في أي معنى استعمل التحريف في القرآن؟
١١. ما هو دليل العقل على عدم التحريف في القرآن؟
١٢. كيف تدلّ ضرورة تواتر القرآن على عدم تحريفه؟
١٣. أذكر علاقة مسألة الإعجاز بعدم التحريف.
١٤. كيف تدلّ آية الحفظ على عدم التحريف؟
١٥. ما الجواب على من يدّعي وجود التحريف في نفس آية الحفظ؟
١٦. كيف تدلّ آية نفي الباطل على عدم التحريف؟
١٧. كيف تدلّ مسألة العرض على كتاب الله على عدم التحريف؟

الإعجاز القرآني

معنى الإعجاز:

الإعجاز: مصدر مزيد فيه من «عجز» إذا لم يستطع أمراً، ضدّ «قدر» إذا تمكّن منه . يقال: «أعجزه الأمر»، إذا حاول القيام به فلم تسعه قدرته و «أعجزتُ فلاناً»، إذا وجدته عاجزاً أو جعلته عاجزاً.

والمعجزة - في مصطلحهم - تطلق على كلّ أمرٍ خارق للعادة، إذا قرن بالتحديّ و سلم عن المعارضة، يظهره الله على يد أنبيائه ليكون دليلاً على صدق رسالتهم.

و هي تتنوّع حسب تنوّع الأمم المرسل إليهم، فتتناسب مع مستوى رقيّهم في مدارج الكمال، فمن غليظ شديد إلى رقيق مرهف، ومن قريب مشهود إلى دقيق بعيد الآفاق. و هكذا كلّما تقدّمت الأمم في الثقافة والحضارة، فإنّ المعاجز المعروضة عليهم من قبل الأنبياء ﷺ ترقّ و تلطّف، و كانت آخر المعاجز رقة و لطفاً هي أرقاها نمطاً و أعلاها أسلوباً، و هي معجزة الإسلام الخالدة، عرضت على البشريّة جمعاء مع الأبد، مهما ارتقت

و تصاعدت في آفاق الكمال، الأمر الذي يتناسب مع خلود شريعة الإسلام.

ثم إنَّ المعجزة ضرورة دفاعية لا تبليغية، فإنَّ الأنبياء لم يبدأوا رسالاتهم بالمعجزة، بل إذا واجهوا المنكرين و شبهاتهم أتوا بها، لأنَّ دعوة الأنبياء مطابقة للفطرة، موافقة للعقل السليم، ﴿و بِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾^(١) و لذا صرَّح القرآن بأنَّ العلماء يقبلون دعوة الحق بلا تأمل، ﴿وَ إِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾^(٢) بخلاف أهل العناد، فإنهم يحدونها، (وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُلوًّا)^(٣).

و لقد صعب على العرب -يومذاك و هم على البداوة الأولى- تحمل القرآن، فلم يطيقوه. و من ثمَّ تمنَّوا لو يُبدَّل إلى قرآن غير هذا، و معجزة أخرى لا تكون من قبيل الكلام: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾^(٤). إنَّها لم تكن معجزة للعرب فقط، و إنما هي معجزة للبشرية عبر الخلود، لكن أنَّى لأمة جهلاء أن تلمس تلك الحقيقة و أن تدرك تلك الواقعية سوى أنَّها ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ

١- الإسراء: ١٠٥.

٢- المائدة: ٨٣.

٣- النمل: ١٤.

٤- يونس: ١٥.

تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرُ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطُ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنُؤْمِنَ لِرُقْيِكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ»^(١) وقد عجب النبي ﷺ من مقترحهم ذلك التافه الساقط، مما يتناسب مع مستواهم الجاهلي و من ثم رفض اقتراحهم ذلك و قال: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾^(٢) أي: ليس هذا من شأنكم وإنما هي حكمة بالغة يعلمها الحكيم الخبير.

قال الراغب الإصفهاني: «المعجزات التي أتى بها الأنبياء ﷺ ضربان: حسي وعقلي. فالحسي ما يدرك بالبصر، كناقصة صالح، و طوفان نوح، و نار إبراهيم، و عصا موسى ﷺ والعقلي ما يدرك بالبصيرة، كالإخبار عن الغيب تعريضاً و تصريحاً، والإتيان بحقائق العلوم التي حصلت عن غير تعلم. فأما الحسي: فيشترك في إدراكه العامة والخاصة. وأما العقلي: فيختص بإدراكه كملة الخواص من ذوي العقول الراجحة، والأفهام الثابتة والرؤية المتناهية، الذين يغنيهم إدراك الحق. و جعل تعالى أكثر معجزات بني إسرائيل حسياً لبلادتهم و قلة بصيرتهم، و أكثر معجزات هذه الأمة عقلياً لذكائهم وكمال أفهامهم التي صاروا بها كالأنبياء. و لذلك قال ﷺ: «كادت أمتي تكون أنبياء»^(٣) و كأن هذه الشريعة لما كانت باقية على وجه

١- الإسراء: ٩٠-٩٣.

٢- الإسراء: ٩٣.

٣- مسند أحمد: ٢٩٦/١.

الدهر غير معرّضة للنسخ، و كانت العقليات باقية، جعل أكثر معجزاتها مثلها باقية...»^(١).

و العرب الجاهليّة الأولى كانت تدرك هذا الإعجاز البياني بذوقها الفطري السليم بسهولة، إذ كان القرآن نزل بلغتهم و على أساليب كلامهم سوى كونه في مرتبة عليا و درجة أرقى، فكانوا يدركونه فهماً و لا يكاد يأتون بمثله أداء و تعبيراً.

كان عصر نزول القرآن أزهى عصور البيان العربي. كانت لهم أندية و أسواق يجتمع إليها فصحاؤهم و يعرضون فيها أنفُس بضائعهم من الشعر و البيان. فإذا ظهرت فيهم الدعوة و نزل القرآن، تعطلت الأسواق و خلت الديار إلّا من صوت القرآن، و لم يقدرُوا على مجاراته، ففضّلوا الفرار على القرار. و لم يكن العرب يومذاك أهل كسل و ملل في الكلام و الخصام، بل كانوا أهل لد و جدل، كما وصفهم الله تعالى ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَاءً﴾،^(٢) و ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾،^(٣) فلو كانت فيهم قدرة على المعارضة، لما صمتوا على ذلّ العار، و لما لجأوا إلى الأسنة و السيوف.

هذا الوليد بن المغيرة المخزومي - كبير قريش و رائدهم و قائدهم - استأمره بشأن هذا الكلام الذي جاء به نبيّ الإسلام ﷺ، فلم يستطع سوى الاعتراف بأنه فوق مقدور البشر، قال: «والله إنّ لقوله الذي يقول

١- عن معذّمته على التفسير: ١٠٢-١٠٤.

٢- مريم: ٩٧.

٣- الزخرف: ٥٨.

لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة وإنّه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنّته ليعلو وما يعلى»^(١).

لا يقال: «إنّه عورض ولم ينقل». لأنّا نقول: النفوس مهتزة لنقل ما دقّ وجلّ. وقد رأينا كتباً كثيرة صنّفت في الطعن على الإسلام قد نقلت و تدوولت. فلما رأيناهم يقولون: «لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ»^(٢)، و «لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا»^(٣)، و «أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»^(٤)، و «لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً»^(٥)، و «إِنِّتَ بَقْرَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلُهُ»^(٦) - كلّ ذلك عجزاً عن الإتيان بمثله - علمنا قصورهم عنه.

و يمتاز القرآن على سائر المعاجز بأنّه يضمّ إلى جانب كونه معجزاً جانب كونه كتاب تشريع، فقد قرّن التشريع بإعجاز و وحدّ بينهما، فكانت دعوة يرافقها شهادة من ذاتها، دلّ على ذاته بذاته.

التحدّي ومراحله:

لقد تحدّى القرآن عامّة العرب، فحاولوا معارضته و لكن لا بالكلام، لعجزهم عنه، بل بمقارعة السيوف و بذل الأموال والنفوس، دليلاً على

١ - مستدرك الحاكم ٢/ ٥٠.

٢ - فصلت: ٢٦.

٣ - الأنفال: ٣١.

٤ - النحل: ٢٤.

٥ - الفرقان: ٣٢.

٦ - يونس: ١٥.

فشلهم عن مقابلته بالبيان. و ربّما كانوا - في بدء الأمر - استقلّوا شأنه، حيث قالوا: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، ^(١) و ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾، ^(٢) و ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾، ^(٣) و ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾، ^(٤) إلى أمثالها من تعابير تكشف عن سخف أوهامهم. لكن سرعان ما تراجعت العرب إلى أعقابها فانقلبوا صاغرين، و قد ملكتهم روعة هذا الكلام و طغت عليهم سطوته، متهمّكاً بموقفهم هذا و متحدّياً في مراحل:

١- ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا

صَادِقِينَ﴾. ^(٥)

٢- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾. ^(٦)

٣- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾. ^(٧)

١- الأنفال: ٣١.

٢- المدثر: ٢٥.

٣- النحل: ١٠٣.

٤- الأنعام: ٩١.

٥- الطور: ٣٣-٣٤.

٦- هود: ١٣-١٤.

٧- يونس: ٣٨-٣٩.

٤- ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾. (١)

٥- ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾. (٢)

و هل وقع التحدي بجميع وجوه الإعجاز أم كان يخص جانب فصاحته و بلاغته؟

لعله يختلف حسب اختلاف الخطاب، فحيث كان التحدي متوجهاً إلى العرب خاصة - و لا سيما ذلك العهد الذي كانت مهنة العرب فيه خاصة بجانب البيان و طلاقة اللسان - كان التحدي حينذاك أيضاً خاصاً بهذا الجانب. أمّا بعد أن توجه النداء العام إلى كافة البشرية، فإنه لا بد أن يكون في القرآن شيء هو الذي تحدي به على وجه العموم. و من ثم كان التحدي بمجموع وجوه الإعجاز من حيث المجموع، بحسب اختلاف الاستعدادات و القابليات. و القرآن معجزة الإسلام لجميع الأدوار و عامة الأجيال و لمختلف طبقات الناس، في الفنون و المعارف و العلوم و الثقافات. شمول التحدي: تحدي القرآن يشمل كل الأمم و كل أدوار التاريخ، سواء العرب و غيرهم، و سواء من كان في عهد الرسالة أم في عهود

١- البقرة: ٢٣ و ٢٤.

٢- الإسراء: ٨٨.

متأخرة حتى الأبد. التحدي لم يكن في جانب ألفاظ القرآن فقط ليخص لغة العرب، وإنما هو بمجموعته من كيفية الأداء والبيان والمحتوى جميعاً. كما أنه لم يخص جانب فصاحته فحسب، ليكون مقصوراً على العهد الأول، حيث العرب في ازدهار الفصاحة والأدب. على أن الفصاحة والبلاغة لم تختص بلغة دون أخرى ولا بأمة دون غيرها.

لكن هناك من حاول اختصاص التحدي بالعهد الأول وإن كان الإعجاز باقياً مع الخلود، زعماً بأن عجز ذلك الدور يكفي دليلاً على كونه معجزاً أبداً. هكذا زعمت الكاتبة بنت الشاطي، قالت: «مناط التحدي هو عجز بلغاء العرب في عصر المبعث، وأما حجة إعجازه فلا تخص عصراً دون عصر وتعم العرب والعجم، وكان عجز البلغاء من العصر الأول وهم أهل الفصاحة برهاناً فاصلاً في قضية التحدي».^(١)

قلت: «لعلها خشيت أن لو قلنا بأن التحدي قائم ولا يزال، ينبري نائرة الكفر والإلحاد، فيأتي بحديث مثله، وبذلك ينقض أكبر دعامة من دعائم الإسلام. لكنها فلتطمئن أن هذا لم يقع ولن يكون، لأن القرآن وضع على أسلوب لا يدانيه كلام بشر البتة ولن يتمكن أحد أن يجاريه لا تعبيراً وأداءً ولا سبكاً وأسلوباً، مادام الإعجاز قائماً بمجموعة اللفظ والمعنى، فأني متكلم أو ناطق يمكنه الإتيان بهكذا مطالب رفيعة، لم تسبق لها سابقة في البشرية وفي هكذا قالب جميل، إلا أن يفضح نفسه؟ وفي التاريخ عبر

تؤثر عن أناس حاولوا معارضة القرآن، لكنهم أتوا بكلام لا يشبه القرآن ولا يشبه كلام أنفسهم، بل نزلوا إلى ضرب من السخف، فمن حدّثه نفسه أن يعيد هذه التجربة، فليُنظر في تلك العبر، و من لم يستح فليصنع ما شاء».

قال الدكتور عبدالله درّاز: «من كانت عنده شبهة، زاعماً أنّ في الناس من يقدر على الإتيان بمثله، فليرجع إلى أدباء عصره، وليسألهم: هل يقدر أحد منهم على أن يأتي بمثله؟ فإن قالوا: «نعم، لو نشاء لقلنا مثل هذا»، فليقل لهم: «هاتوا برهانكم». وإن قالوا: «لا طاقة لنا به». فليقل لهم: «أى شيء أكبر شهادة على الإعجاز من الشهادة على العجز». ثمّ ليرجع إلى التاريخ فليسأله ما بال القرون الأولى؟ ينبئك التاريخ أنّ أحداً لم يرفع رأسه أمام القرآن الكريم، وأنّ بضعة نفر الذين انغصّوا رؤوسهم إليه، باؤوا بالخزي والهوان، وسحب الدهر على آثارهم ذيل النسيان».^(١)

إشكال: إنّ صناعة البيان ليست في الناس بدرجة واحدة، ومن ثمّ يختلف الناس في طريق التعبير و الأداء، ولا يمكن أن يتشابه اثنان في منطقهما و تعبيرهما، إلّا إذا كان عن تقليد. فكيف جاز تحدّي الناس لو يأتوا بحديث في مثل القرآن و هم عاجزون أن يأتوا بمثل كلام بعضهم؟

جواب: غير خفي أنّ لشرف الكلام و ضِعْفِهِ مقاييس، بها يعرف ارتفاع شأن الكلام و انحطاطه و قد فصلها علماء البيان، و بها تتفاوت درجات

الكلام و يقع بها التفاضل بين أنحائه من رفيع أو ضيع . و لا يطالب القرآن أن يأتوا كلاماً بمثل صورته الكلامية - كما حسبه مسيلمة الكذاب و من هذا حذوه من أغبياء القوم^(١) - بل يطلب كلاماً - أيّاً كان نمطه و أسلوبه - بحيث إذا قيس مع القرآن بمقياس الفضيلة البيانية حاذاه أو قاربه ، كما يقاس كلمات البلغاء بعضهم مع بعض .

أبعاد إعجاز القرآن

لإعجاز القرآن أبعاد ثلاثة : البياني و العلمي و التشريعي .

١- الإعجاز البياني :

فصاحته بالغة و بلاغته فائقة . تعابيره دقيقة . كلماته منظمة على أنظمة صوتية دقيقة ، متناسبات الأجراس ، متناسقات التواقيع ، في تقاسيم و تراكيب سهلة سلسلة ، عذبة سائغة ، ذات رنة و جذبة شعرية و استهواء سحري غريب . قال أرباب الأدب : «لو انتزعت منه لفظة ثم أدير بها لغة العرب كلها على أن يوجد لها نظير في موضعها الخاص ، لم توجد البتة» .

١- كان يقول مسيلمة الكذاب : «الفيل ما الفيل؟ وما أدراك ما الفيل؟ له ذنب و بيل و خرطوم طويل...» .
وكان يقول : «و المبدّرات زرعاً و الحاصدات حصداً و الذاريات قمحاً و الطاحنات طحناً و الخازنات خبزاً و الثارذات ثرداً و اللاقعات لقماً إهالة و سمناً لقد فضلتم على أهل الوبر و ما سبقكم أهل المدر ريفكم فامنعوه و المعتر فأووه و الباغي فناووه» . تاريخ الطبري : ٥٠٨/٢ - ٥٠٤ .

من دقيق تعبيره أنه حينما يذكر السرقة يورد السارق مقدماً على السارقة، «السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا»^(١)، أمّا في الزّنا فيذكر الزّانية مقدّمة على الزّاني، «الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةٍ»^(٢)، والحكمة واضحة، فالمرأة في الزنا هي البادئة و هي التي تدعو الرجل بزینتها و تبرّجها، أمّا في السرقة فهي أقلّ جرأة من الرجل.

و من تناسق نظمه و تناسب نغمه، فحينما نصغي إلى ما يقوله زكريّا لربه «رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً»^(٣)، أو نستمع إلى الجملة التي تتحدّث عن خشوع الرسل: «إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيّاً»^(٤)، أو النغمة الرهيبة التي تصف اللقاء بالله يوم القيامة: «وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَ قَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً»^(٥)، فإنّ عذوبتها تملك شغاف القلب، أمّا إذا تحوّل القرآن إلى حديث المجرمين و ما أنزل بهم من عذاب، تحوّل النغمة إلى أصوات تصكّ الأذن: «إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمٍ نَخْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ النَّاسُ كَانْتِهِمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ»^(٦)، مع الهول و الشؤم «وَ أَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ

١- المائدة: ٣٨.

٢- النور: ٢.

٣- مريم: ٤.

٤- مريم: ٥٨.

٥- طه: ١١١.

٦- القمر: ١٩ و ٢٠.

لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ^(١).
و من تجسيد معانيه في أجراس حروفه، فعندما تستمع إلى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ﴾^(٢) كأنك تحسّ بسمعك صوت هذه الريح العاتية، ولها صرير و صراخ تدمر كل شيء، فتصوّر وقع عذاب شديد ألمّ بقوم ظالمين.

و من تناسب فواصل الآيات قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ أَوْ فَلَ تَسْمَعُونَ﴾ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تُسْكِنُونَ فِيهِ أَوْ فَلَ تُبْصِرُونَ^(٣). ختمت الآية الأولى بقوله: ﴿أَوْ فَلَ تَسْمَعُونَ﴾، لأنّه المناسب لذكر الليل السرمد و هي الظلمة المطبقة لاموضع فيها لحسّ البصر، سوى حسّ السمع يسمع حسيها، وأمّا الآية الثانية فكان الكلام فيها عن النهار السرمد، فناسبه الإبصار.

و من روعة استعارته، قوله تعالى - حكاية عن زكريّا -: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾^(٤) جاءت التكنية عن حلول مشيب عارض و هرم بالغ بتعبيرين هما من أرقّ التعابير و أدقّها في هذا

١- غافر: ١٨.

٢- آل عمران: ١١٧.

٣- القصص: ٧١ و ٧٢.

٤- مريم: ٤.

المجال: كنى عن الشيب البالغ بوهن العظم و هو يلزم ضعف الشيب، فذكر العلة الباطنة دليل على المعلول الظاهر؛ و عن هرمه و كبر سنّه بتجلّل المشيب رأسه أجمع، لكنّه استعار لتهلّل البياض المتجلّل به شيب الرأس وهيج النار، و هي استعارة غريبة لم يسبق لها نظير في كلام العرب. إنّ لبياض الشيب تشعشعاً بالنور لدى النظر إليه، كما يلتهب شواظ النار عند توقّد الاشتعال. و لو قال: «و اشتعل شيب الرأس»، لم يفهم منه تجلّل الرأس كلّ شيباً و إنارة ليكون دليلاً على بلوغ هرمه فضلاً عن إشعاره بموضع الشّبّه للاستعارة.

و من لطيف كنايته، قوله تعالى: ﴿وَاوَدَّتُهُ التِّي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾^(١) كنى عن طلب الجماع بالمرادة.

و من بديع استدلاله، قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَالِ الَّذِينَ وَالِ الْأَقْرَبِينَ وَالِ الْيَتَامَى وَالِ الْمَسَاكِينِ وَالِ ابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)^(٢) سئلوا عن الذي ينفقونه، فأجيبوا ببيان مصارف الإنفاق، تنبيهاً على أنّ المهمّ هو معرفة موضع الإنفاق، أمّا الذي يجب أن ينفق فهو خير ما تيسّر، من أيّ جنس كان، لأنّ النفقة لا يعتدّ بها إلا أن تقع موقعها، و كلّ ما فيه خير و صلاح فهو صالح للإنفاق. و من ثمّ ختمت الآية بنوايا صاحب الإنفاق و أنّ الله عليم بذات الصدور.

١- يوسف: ٢٣.

٢- البقرة: ٢١٥.

٢- الإعجاز العلمي:

لا شك أن القرآن كتاب حكمة وهداية وتربية وإرشاد ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(١) ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَ يَحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾^(٢) ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾^(٣) ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(٤) هذه هي رسالة القرآن في الأرض، ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾^(٥)

إذاً فليست الشريعة دراسة طبيعة، ولم يكن القرآن كتاب علم بالذات، سوى إشارات عابرة جاءت في عرض الكلام، وإماعات خاطفة وسريعة إلى بعض أسرار الوجود، يعرفها العلماء الراسخون، إذ لم تصدر على سبيل القصد والبيان، وهي في نفس الأمر تكشف عن مخزون علم لا يتناهى. ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾^(٦) ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾^(٧)

١- آل عمران: ١٦٤، الجمعة: ٢.

٢- الأعراف: ١٥٧.

٣- المائدة: ١٦.

٤- الفرقان: ١.

٥- الفتح: ٢٨، الصف: ٩.

٦- الكهف: ١٠٩.

٧- الطلاق: ١٢.

وإليك بعض ما وصلت إليه أفهام البشرية من العلوم الطبيعية المقطوع بها تقريباً، وكان ذلك دليلاً على معجزة القرآن الخارقة للعادة، في زمان كان سرّ هذه العلوم والآراء النظرية مكتوماً على البشرية، وأصبح اليوم مكشوفاً، وسيكتشف أيضاً حسب مرّ الأيام.

أ. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾،^(١) يشير إلى أنّ أصل الحياة من الماء، في نشأتها وتكوينها وظهورها في عالم الوجود. قال سيّدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي رحمه الله: «في ظلّ البحوث العلميّة الحديثة ظهرت صلة الحياة بالماء».^(٢)

ب. قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾،^(٣) يشير إلى أنّ نشأة الإنسان من ماء الرجل، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾،^(٤) والنطفة ماء الرجل ومنيّه ينزله بشهوة ودفق. صرّح بذلك أهل اللغة. يقول الطبّ الحديث: «إنّ الماء الدافق هو ماء الرجل. أي: المني، يخرج من بين صلب الرجل و

١- الأنبياء: ٣٠.

٢- الميزان: ٣٠٥/١٤.

٣- الطارق: ٥- ٧. الدفق: الدفع بشدّة، الصلب: العمود الفقري الممتدّ من الكاهل حتى العجب، و الترائب: جمع تريب و تريبة، أطلق على عظام متساوية الأطراف و مترادفة التركيب في هيكل الإنسان العظمي... منها: العظم المنحني المتساوي الطرفين الكائن بين أصول الفخذين فوق العانة، كما نقل عن الضحّاك - فيما رواه ابن كثير - قال: الترائب: بين الثديين والرجلين والعينين. تفسير ابن كثير: ٤٩٨/٤.

٤- النحل: ٤.

تراثه - أي: أصول أرجله - وذلك لأن معظم الأمكنة والممرات التي يخرج منها السائل المنوي تقع من الناحية التشريحية بين الصلب والتراتب^(١).
ج. قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾^(٢) - أي: بنيناها بقوة وإحكام - يشير إلى حقيقة كانت خافية على البشر ثلاثة عشر قرناً، وهي أن فسحة السماء لا تزال تتمدد وتتوسع مع توالى الأحقاب. وأول من تنبّه لذلك هو العالم الفلكي لومتر البلجيكي، في عام ١٩٢٧ الميلادي.

د. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾^(٣) يشير إلى أن الطبقات العليا من الفضاء خالية من الهواء، أي: ومن يرد أن يضلّه فهو كمن يحسّ بخرج في تنفّسه و تتضايق عليه الحياة بسبب ارتفاعه في طبقات عليا من الفضاء. هكذا يكشف العلم عن أسرار هذا الكتاب المبين.

هـ. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾^(٤) يشير إلى حقيقة كشف عنها العلم، وهي إحاطة الأرض بواسطة غلاف هوائي سميك، قد يبلغ ارتفاعه أكثر من ٣٥٠ كيلومتراً، يكونُ ترساً واقياً للأرض من قذائف السماء.

١ - مع الطب في القرآن الكريم: ٣٣.

٢ - الذاريات: ٤٧.

٣ - الأنعام: ١٢٥.

٤ - الأنبياء: ٣٢.

و. قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾،^(١) يشير إلى الجاذبيّة العامّة. والحبك: الشدّ الوثيق.

ز. قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾^(٢) يشير إلى حركة الجبال، وليست حركة الجبال في مسير الفضاء سوى حركة الأرض الانتقاليّة في دورتها السنويّة، أو الوضعيّة حول نفسها.

ح. قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾،^(٣) يشير إلى أنّ هناك معجزة كبرى في تسوية البنان، وبعثه على صورته الأولى يكون أكبر من إحياء العظام البالية، الأمر الذي لم يكشف سرّه إلّا بعد نزول الآية بأكثر من ألف سنة، حينما عرف أنّ لكلّ إنسان بصمة خاصّة رسمت على بنانه لا يتفق اثنان في بصمة واحدة، منذ أن خلق الله الإنسان. وهذا سرّ غريب في الخليقة أولاً و في إشارة القرآن إليه ثانياً.

الإعجاز الغيبي:

يلحق بالإعجاز العلمي الإعجاز الغيبي، وهو إخباره عمّا غاب عن النبي ﷺ وقومه ممّا لم يشهدوا حوادث الواقعة أو لم يحضر وقتها، فلم يكونوا على علم بتفاصيلها. وهو يشمل غيب الماضي و غيب الحاضر

١- الذاريات: ٧.

٢- النمل: ٨٨.

٣- القيامة: ٤٣.

وغيب المستقبل .

فمن غيب الماضي قوله تعالى بشأن قصة مريم وكفالة زكريا لها :
 ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُتْلُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ
 يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾^(١) وقوله بشأن قصة نوح و
 قضية الطوفان : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا
 قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾^(٢) فَإِنَّ ورود أخبار الأمم الماضية بهذا التفصيل الدقيق
 دليل على كونه وحياً من عند الله علام الغيوب و ليس من عند البشر ذي
 العلم القصير و لا سبياً من مثل محمد ﷺ الذي نشأ في بيئة لا تمكّنه
 الاطلاع على مثل هذه الأمور على دقائقها و ظرائفها . و ليست تهمة قريش
 بأنّها «أساطير الأولين اُكْتُتِبَهَا»^(٣) إلّا افتراءً مفضوحاً ، جاءت على خلاف
 ما استيقنتها نفوسهم من أُمّية الرسول ﷺ و عدم اتّصاله بأحد من أهل
 الكتاب و لم تكن له أسفار علميّة للبحث عن آثار الأمم .

و من غيب الحاضر - و المقصود منه ما جرى على عهد الرسول ﷺ ،
 من حوادث لم يحضرها هو و لا الخصيصون من أصحابه فنزل القرآن
 متضمناً لها و مخبراً بحقيقة ما جرى - قوله تعالى بشأن المنافقين و بناءهم
 مسجداً ضراراً : ﴿وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَ كُفْراً وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ
 الْمُؤْمِنِينَ وَ إِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لِيُخْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا

١- آل عمران : ٤٤ .

٢- هود : ٤٩ .

٣- الفرقان : ٥ .

الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ»^(١). والغاية الأساسية من غيب الحاضر هو تأييد الدعوة.

و من غيب المستقبل قوله تعالى: ﴿الْم * غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُم الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَ لِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾^(٥).

١- التوبة: ٩٧.

٢- الروم: ١- ٦. كانت الحروب دامية بين الروم والفرس من سنة ٦٠٣م إلى سنة ٦٢٧م، وكانت الغلبة لإيران في أول الأمر، حتى عام ٦٢٢م، وبعده انقلب الأمر. والآية نزلت بمكة حين كانت الغلبة للفرس على الروم، فكانت الهجرة - وكان في سنة ٦٢٢م - مقارنة لغلبة الروم على الفرس. تمهيداً للفتوحات التي كانت تنتظر المسلمين تجاه قوى الفرس.

٣- البقرة: ٢٣ و ٢٤.

٤- الصف: ٩.

٥- النور: ٥٥.

٣- الإعجاز التشريعي:

كانت للإنسان - ولا تزال - مسائل عن هذه الحيات، كان يحاول الإجابة عليها: من أين أتى؟ ولم أتى؟ وإلى أين؟ وكانت محاولاته بهذا الشأن قد شكّلت مجموعة المسائل الفلسفية الباحثة عن سرّ الوجود. و لكن هل حصل على أجوبة كافية، أم كانت ناقصة غير مستوفاة لحدّ الآن لولا إجابة القرآن عليها إجابة وافية و شافية؟ «يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ»^(١). القرآن الكريم هو الذي تعرّض لحلّ معضلة الحياة و فصلّ الكلام عن بدء الخليقة و الغاية عن الوجود و كشف عن سرّ الحياة، و أجاب عن مسائل ممّا لم يكده يعرفه الإنسان. «عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»^(٢). الأمر الذي جعل القرآن آية باهرة و معجزة قاهرة، دلّت على أنّه ليس كلام البشر و إنّما هو وحي أنزله الله تعالى هدىً و رحمة للعالمين. كما أتخف للبشريّة جمعاء براج لنظم الحياة و ليعيش في سلامة و تودة و هناء، ممّا لم يسبقه - كما لم يلحقه - شريعة وضعها الإنسان. إنّ الإنسان مهما ارتقى في مدارج الكمال فإنّه لا يمكنه الانطلاق من قيود نزعاته الهابطة التي تربطه بنحسائس الأرض أكثر ممّا يرتقيه إلى آفاق السماء. و هو لا يستطيع التخلّص من برائن الحيوانيّة و البهيمة التي تتحكّم في نفسه إذا لم تكن مهذّبة تهذيباً يتناسب مع معالي

١- يونس: ٥٧.

٢- العلق: ٥.

الإنسانية الرفيعة. و من ثمَّ فإنَّ سماته الخسيسة سوف تبدو على ما يضعه من قانون أو يُعرضه من شرائع و أنظمة لتنظيم الحياة. و الشرائع السماوية هي المتحرّرة عن هذه الخسائس، و من ثمَّ جاءت صافية و نقيّة و نزيهة عن كلّ دنس و خسيّة بشريّة ممّا افتقدته الإنسانية منذ قرون، حيث جاء القرآن بشرائعه طاهرة زكيّة تسمو معارف البشريّة.

صفات المجد في القرآن: جاءت صفات المجد لله تعالى في القرآن صافية زاهية، و نزيهة و طاهرة، هي صفات الجلال و الجمال في تقديس و إكبار: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾* هو الله الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِيمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ* هو الله الخالق الباريُّ الْمُصَوِّرُ له الأسماء الحُسنى يُسَبِّحُ له ما في السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هو العزيزُ الْحَكِيمُ*^(١) فهو الله لا إله غيره، لا شريك له، عالمُ الغيب و الشهادة لا يعزب عن علمه شيء هو الرحمن الرحيم، المسيطرُ على الخلق كلّ، المترفعُ عن الدَّنَاسِ و الخسائس، الضامنُ على الخلق سلامتهم في عافية و هناء، المتكفلُ للأمن و الطمأنينة على الناس في الحياة، المسيطرُ على مقدّرات الخلق، ربُّ العالمين، الَّذِي لَا يَغَالِبُ فِي تَدْبِيرِهِ وَ تَنْفِيزِ إِرَادَتِهِ، النافذُ إِرَادَتِهِ، الَّذِي تَلْبَسُ بِالْعَزِّ وَ الْكِبَرِيَاءِ.

أمَّا الَّذِي جَاءَ فِي الْكُتُبِ الْمَحْرُفَةِ، المتداولة حينذاك، مثل العهدين، فيألى

الإهانة أقرب منها إلى الاحترام بشأنه تعالى. إله التوراة يخدع لآدم وحواء خشية أن يخلدا في الحياة، و يكذب في نصيحته لآدم و حواء - وإبليس يصادقهما - و يجهل مكانهما و يخشى أن يعرفا الخير من الشر و يصبحا عاقلين^(١).

تقديس الأنبياء: يتعرض القرآن لذكر الأنبياء فيصفهم بكلّ جميل ينبغي أن يوصفوا به، و ينسب إليهم كلّ مآثرة كريمة تلازم قداسة النبوة، و نزاهة السفارة الإلهية. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾^(٢) و قال:

١ - جاء في التوراة المحرّفة في الإصحاح الثالث من سفر التكوين (العدد ١-١٢، و ٢٢-٢٤): «كانت الحيّة أحيل جميع الحيوانات، فقالت للمرأة: أحقاً قال الله: لا تأكل من كلّ ثمر الجنة؟ فقالت المرأة للحيّة: وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكل منه ولا تمسه لئلا تموتا، فقالت الحيّة للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنّه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما و تكونون كالله عارفين للخير والشر، فأخذت المرأة من ثمرها و أكلت و أعطت رجلها أيضاً معها فأكل، فانفتحت أعينهما، و علما أنّهما عريانان، فخطا أوراق تين و صنعا لأنفسهما مآزر، و سمعا صوت الربّ الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار. فاختبأ آدم و امرأته من وجه الربّ الإله في وسط شجر الجنة. فنادى الربّ الإله آدم و قال له: أين أنت؟ فقال آدم: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأنّي عريان فاخترت، فقال الربّ: من أعلمك أنّك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟... و قال الربّ الإله: هوذا الإنسان قد صار كواحد منّا عارفاً للخير والشرّ، و الآن لعله يمدّ يده و يأخذ من شجرة الحياة أيضاً و يأكل و يحيى إلى الأبد، فأخرجه الربّ الإله من جنة عدن فطرد الإنسان، و أقام شرقي جنة عدن الكرويم، و لهيب سيف منقلب لحراسة طريق شجر الحياة».

﴿اولئك الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝﴾^(١)

أما كتب العهدين فقد تعرّضت أيضاً لذكر الأنبياء و وصفتهم، و لكن بماذا وصفتهم؟ و بأيّ منزلة و ضيعة أنزلت هؤلاء السفرة الأبرار؟
جاء في الإصحاح ١٢ من سفر التكوين: «انحدر أبرام إلى مصر، و حدث لما قرب أن يدخلها أنه قال لساري امرأته: قد علمت أنكِ حسنة المنظر، فيكون إذا رآكِ المصريون فيقولون: إنها امرأته، فيقتلونني و يستبقونكِ. قولي: إنكِ أختي، ليكون لي خير بسببك، و تحيا نفسي من أجلك. و لما دخلوا مصر و رآها المصريون أنها حسنة جداً و صفوها لفرعون، فأخذت إلى بيت فرعون، فصنع إلى أبرام خيراً بسببها و صار له غنم و بقر و حمير و عبيد و إماء و أتن^(٢) و جمال. و حينما علم فرعون أنها امرأة أبرام و ليست أخته دعا أبرام و وبّخه و قال له: ما هذا الذي صنعت بي؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك؟ فردّها عليه».

أفهل يعقل من نبي عظيم أن يعرض زوجته للفحشاء بغية حفظ نفسه أو طلباً في المال؟ قال سيّدنا الأستاذ الإمام الخنوي^(٣): «حاشا إبراهيم - وهو من أكرم أنبياء الله - أن يرتكب ما لا يرتكبه فرد عاديّ من الناس»^(٣).

١- مريم: ٥٨.

٢- جمع أتان بمعنى حمارة.

٣- البيان: ٦٣.

و جاء في الإصحاح ١٩ من سفر التكوين: «و صعد لوط من صوغر و سكن في الجبل و ابتاه معه، و قالت البكر للصغيرة: «أبونا قد شاخ و ليس في الأرض رجل ليدخل علينا، هلمّ نسقي أبانا خمرأً و نضطجع معه فنحيي من أبينا نسلأً». ففعلتا ذلك من غير أن يشعر أبوهما بفعلتهما الشنيعة، فحملتا منه».

و جاء في الإصحاح ١١ و ١٢ من صموئيل الثاني: «أنّ داود زنى بامرأة أوريا في غياب منه، لأنّه كان في قتال مع الكفار، فحبلت منه، و خشي داود الفضيحة و أراد تمويه الأمر، فكتب إلى رئيس جنده أن يجعل أوريا في مقدّمة الجيش، فقتل أوريا. فضمّ داود امرأة أوريا إلى بيته و صارت امرأته».

شمول الدعوة: القرآن يحمل رسالة الله إلى كافّة الخلائق، لا تخصّ أمة دون أخرى. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾^(١) و قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾^(٢).

لكن الدعوة - في العهد القديم - موجّهة إلى شعب بني إسرائيل، وكانت الشريعة خاصّة ببني إسرائيل، شعب الله المختار، حسب زعمهم. سوى أنّ القرآن يردّ تلك المزعومة و يصرّح بأنّ دعوة النبيّين - و لا سيّما أولي العزم منهم - كانت عامّة لجميع شعوب العالم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ

١- سبأ: ٢٨.

٢- الصف: ٩، التوبة: ٣٣.

أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ۖ (١) و قال بشأن التوراة و الإنجيل : ﴿ وَ أُنزِلَ التَّوْرَةُ وَ الْإِنْجِيلُ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ ۖ ﴾ (٢)

تشريعاته الراقية : جاءت تشريعات القرآن متوافقة مع الفطرة السليمة و متلائمة مع العقل الرشيد، قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۖ ﴾ (٣) و من جهة أخرى، كانت القوانين الإلهية جامعة و شاملة للجوانب الثلاثة في حياة الإنسان : جانب الفرد ذاته، و جانب المجتمع الذي يعيش فيه، و جانب حقّ الله تعالى في الخلق. و إليك بعض الأمثلة :

أ. أضاف القرآن إلى جانب مفاهيمه عن الوجود و المبدأ و المعاد فرائض و عبادات بغية المحافظة على الروح الدينية عند المسلمين. و أهمّ هذه الواجبات - أو أركان الإسلام - هي : الصلاة و الصيام و الحجّ و الزكاة أو الصدقات بعمومها.

ب. إنّ الأسرة في نظر القرآن تعدّ اللبنة المهمّة في البناء الاجتماعي، و على مدى سلامتها و متانة العلاقات القائمة في داخلها يتوقّف سلامة البناء برمته. قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَ نِسَاءً ۖ ﴾ (٤) ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ

١- آل عمران: ١٨٧.

٢- آل عمران: ٣ و ٤.

٣- الروم: ٣٠.

٤- النساء: ١.

أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً ﴿١﴾ فالسكن هنا
و المودة و الرحمة عناصر أساسية في استقامة البناء الأسري.

ج. قال تعالى بشأن القصاص: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ
الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ
مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ
وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِعَدْوٍ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ* وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا
أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢﴾

د. قال تعالى بشأن اليتامى: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا
الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٣﴾
هـ. إنَّ القرآن في حين إقراره للإنسان حقاً واجباً - إذا أعطينا صفة
التعميم لقاعدة: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ مَا عَلَيْهِنَّ ﴿٤﴾ - حكم بنفي الضرر أيضاً، قال:
﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴿٥﴾﴾ وَلَا تُمْسِكُوا هُنَّ
ضُرَارًا ﴿٦﴾

و. اعتبر القرآن كلَّ فعل ضارٍّ بالغير موجباً لمسؤولية الفاعل أو

١- الروم: ٢١.

٢- البقرة: ١٧٨ و ١٧٩.

٣- النساء: ٢.

٤- البقرة: ٢٢٨.

٥- البقرة: ٢٨٢.

٦- البقرة: ٢٣١.

المتسبب بالتعويض عن الضرر ولو كان عن خطأ. ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾. (١)

ز. اعتبر القرآن أن كل فعل ممنوع في ارتكابه عقوبة، قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾. (٢)

ح. حدّد القرآن نوعاً خاصاً من العقوبة لجرائم معينة: (الزّانية و الزّاني فأجلدوا كلّ واحدٍ منهما مائة جلدَةٍ) (٣) و ﴿السّارقُ و السّارقة فأقطّعوا أيديهما﴾. (٤)

ط. أقرّ القرآن بالحرّية: ﴿لا إكراه في الدّين﴾. (٥) و المساواة أمام القانون: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. (٦) و احترام أفكار الأمّة: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾. (٧)

ي: بما أن وقوع النزاع و التخاصم في المجتمع الإنساني أمر لا مفرّ منه، وضع القرآن أحكاماً قضائية، لرفع الخصومات.

ك: أشار القرآن الكريم إلى أن لوليّ الأمر في الدولة الإسلامية صلاحيّات إداريّة و أنّ في يده جميع السلطان. ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا

١- النساء: ٩٢.

٢- الشورى: ٤٠.

٣- النور: ٢.

٤- المائدة: ٣٨.

٥- البقرة: ٢٥٦.

٦- الحجرات: ١٣.

٧- الشورى: ٣٨.

الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ»^(١).

ل. القرآن يرى بني نوع الإنسان أعضاء بدن واحد، «بعضكم من بعض»^(٢) ولا يفضل حرّاً على عبد. بل لم يعترف بالرقية كما كانت عليه الأمم في ذلك اليوم. كان العالم المتمدّن يرى اللون والجنسية ملاكاً للحرية و الرقبة، وأنّ ذا اللون الأسود أو العائش في بلاد نائية عن الأوساط المتمدّنة إنّما خلق ليكون مملوكاً للإنسان الأبيض العائش في أوساط البلاد. و من ثمّ كان الإفريقيّون يصادون كما يصاد الحيوان الوحش لأجل الاستخدام و العرض في أسواق العالم. قام القرآن بالتحرّر الروحي - في الأرقاء - قبل قيامه بتحرّرهم الجسمي، فقد جعلهم متساوين مع السادة في الروح والإنسانية و سائر الحقوق، ثمّ مهّد السبيل لتحرّرهم الواقعي. فقد قرّر صرف قسط كبير من الصدقات في سبيل تحرير الأرقاء، «إنّما الصدقات للفقراء و المساكين و العاملين عليها و المؤلفة قلوبهم و في الرقاب...»^(٣)، «فلا اقتحم العقبة» و ما أدراك ما العقبة * فك رقة * أو إطعام في يوم ذي مسغبة...»^(٤). العقبة كناية عن ركوب الصعاب، و المراد هنا: المشقة على النفس و ذلك ببذل المال في سبيل الله الذي هو دليل الإيمان الصادق. فأول ما بدأ به فك الرقاب. قال العلامة الطباطبائي: «لكمال عناية الدين بفك

١- النساء: ٥٩.

٢- النساء: ٢٥.

٣- التوبة: ٦٠.

٤- البلد: ١١-١٤.

الرقاب»^(١) و من العناية بشأن الرقاب جعله كفارة لبعض الآثام، كقتل الخطأ و الحنث في الأيمان و نحو ذلك، «وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ»^(٢) و غير ذلك من الأحكام..
أمثلة من تشريعات التوراة:

١. إذا نطح ثور رجلاً أو امرأة فمات يرمم الثور و لا يؤكل لحمه. و أما صاحب الثور فيكون بريئاً. و لكن إن كان ثوراً نطاحاً من قبل و قد أشهد على صاحبه و لم يضبطه فقتل رجلاً أو امرأة فالثور يُرمم و صاحبه أيضاً يُقتل^(٣).

٢. من مسّ ميتاً ميتة إنسانٍ ما يكون نجساً سبعة أيام.

٣. إذا كانت امرأة لها سيل و كان سيلها دمًا في لحمها فسبعة أيام تكون في طمسها، و كلّ من مسّها يكون نجساً إلى المساء. و كلّ ما تضطجع عليه في طمسها يكون نجساً، و كلّ ما تجلس عليه يكون نجساً و كلّ من مسّ فراشها يغسل ثيابه و يستحمّ بماء و يكون نجساً إلى المساء^(٤).
٤: كلّ إنسان سبّ أباه أو أمّه فإنه يقتل^(٥).

٥. الجثّة (الميتة و كلّ ما ذبح على غير الطريقة الشرعيّة) لا يأكلها

١- الميزان: ٢٠/٣٢٢.

٢- النساء: ٩٢.

٣- سفر الخروج: ٢١/١.

٤- لاويين: ١/١٥.

٥- لاويين: ٢٠/١.

إسرائيلي، بل يدفعها إلى الأجنبي الغريب، ذلك لأنَّ الإسرائيلي شعب مقدّس يترقّع عن أكل الجثّ.^(١)

٦. لا يطالب صاحبه ولا أخاه، لأنّه نودي بإبراء للربّ. الأجنبي تطالب. وأمّا ما كان لك عند أخيك فتبرئه يدك منه.^(٢)

الأسئلة

١. ما معنى الإعجاز لغة واصطلاحاً؟
٢. هل المعجزة ضرورة دفاعيّة أو تبليغيّة؟ بيّن ذلك.
٣. أذكر كلام الراغب في أقسام المعجزة.
٤. هل القرآن معجزة حسيّة أو عقليّة؟
٥. كيف أدركت العرب الجاهليّة الأولى إعجاز القرآن؟
٦. ما الجواب عن القول بأنّ القرآن عورض ولم ينقل؟
٧. ما وجه امتياز القرآن عن سائر المعاجز؟
٨. ما معنى التحديّ وما خطواته؟
٩. هل وقع التحديّ بجميع وجوه الإعجاز أم يختصّ جانب فصاحته وبلاغته فقط؟ وضح ذلك.
١٠. هل التحديّ يشمل كلّ الأمم وكلّ أدوار التاريخ؟ بيّن ذلك.

١- الشنينة: ١٤/١.

٢- الشنينة: ١٥/١.

١١. ما هو رأي الكاتبة بنت الشاطي في مسألة التحدي؟ و ما جوابها؟
١٢. ماذا يقول الدكتور عبدالله درّاز في مسألة الإعجاز؟
١٣. كيف جاز التحدي و الناس عاجزون أن يأتوا بمثل كلام بعضهم؟
١٤. أذكر أبعاد إعجاز القرآن.
١٥. ما المراد من الإعجاز البياني؟ أذكر أمثلة لذلك.
١٦. ما المراد من الإعجاز العلمي؟ أذكر أمثلة لذلك.
١٧. ما المراد من الإعجاز الغيبي؟ أذكر أمثلة لذلك.
١٨. ما المراد من الإعجاز التشريعي؟
١٩. لم لا يمكن للإنسان أن يجيب عن مسائل حياته بصورة وافية؟
٢٠. كيف جاء صفات الله في القرآن و كتب العهدين؟
٢١. ما الفرق بين صفات الأنبياء في القرآن و التوراة؟ مثل لذلك.
٢٢. أذكر رأي القرآن و التوراة في شمول دعوة الأنبياء لجميع الناس؟
٢٣. ما هو رأي القرآن بالنسبة إلى الأسرة؟
٢٤. اشرح رأي القرآن حول المفاهيم الآتية: القصاص، اليتامى، نفي الضرر، الحرّية، إطاعة وليّ الأمر، مساواة الناس في حقوقهم الاجتماعية.
٢٥. أذكر أمثلة من تشريعات التوراة.

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله و صلى الله على محمد وآله الطاهرين سيما سيدنا ومولانا الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف وجعلنا من أعوانه وأنصاره وجعلنا من المستشهادين بين يديه . وقد وقع الفراغ من تلخيص كتاب «التمهيد في علوم القرآن» تأليف أستاذنا العلامة آية الله الشيخ محمد هادي معرفة دام ظلّه العالي، ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ١٤١٧ «ليلة القدر» و أسأل الله تعالى من فضله أن يجعلنا من المتمسكين بالثقلين كتاب الله والعترة وأن يوفقنا لما يحب ويرضى وأن ينفعنا به ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

٢١ رمضان المبارك ١٤١٧ - ١٢ بهمن ١٣٧٥

قم المقدسة، محمود الملكي الإصفهاني

الفهرست

٧	ظاهرة الوحي
٧	الوحي في اللغة
٧	الوحي في القرآن
١٠	أنحاء الوحي بالنسبة إلى نبينا محمد ﷺ
١٠	١ - الرؤيا الصادقة
١١	٢ - نزول جبرائيل
١٢	٣ - الوحي المباشر
١٣	موقف النبي ﷺ من الوحي
١٣	كيف عرف النبي ﷺ أنه مبعوث بالرسالة؟
١٣	هل يجوز على النبي ﷺ أن يخطأ في ما يوحى إليه؟
١٦	ردّ قصّة ورقة بن نوفل
١٧	ردّ أسطورة الغرائق
٢١	الأسئلة

٢٣	 نزول القرآن
٢٣	 بدء نزول الوحي
٢٤	 بدء نزول القرآن
٣٢	 أول ما نزل
٣٢	 ١ - سورة العلق
٣٢	 ٢ - سورة المدثر
٣٣	 ٣ - سورة الفاتحة
٣٤	 الجمع بين الأقوال
٣٤	 آخر ما نزل
٣٤	 ١ - سورة النصر
٣٥	 ٢ - سورة براءة
٣٥	 ٣ - آية (وَاتَّقُوا يَوْمًا...)
٣٥	 ٤ - آية إكمال الدين
٣٥	 الجمع بين الأقوال
٣٦	 المكي والمدني
٣٧	 ترتيب نزول السور
٣٩	 السور المكية
٤١	 السور المدنية
٤٢	 الأسئلة
٣٤	 أسباب النزول

٤٦	التنزيل و التأويل
٤٨	العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص المورد
٤٩	نزول القرآن ﴿إِيَّاكَ أَعْنِي﴾ فاسمعي يا جارة
٥٠	كيف الاهتداء إلى معالم القرآن
٥١	الأسئلة
٥٢	تأليف القرآن
٥٣	نظم كلماته
٥٤	تأليف آياته
٥٦	ترتيب سوره
٥٧	جمع علي بن أبي طالب عليه السلام
٥٩	جمع زيد بن ثابت
٦١	مصحف أخرى للصحابه
٦٢	الأسئلة
٦٤	توحيد المصاحف
٦٥	فكرة توحيد المصاحف
٦٧	لجنة توحيد المصاحف
٦٩	عدد المصاحف العثمانية
٧٠	تعريف المصاحف العثمانية
٧٠	١ - الترتيب
٧٠	٢ - النقط و التشكيل

- ٣- مخالفات في رسم الخط ٧٢
- ٤- مناقضات في الرسم العثماني ٧٤
- ٥- اختلاف المصاحف ٧٥
- الأسئلة ٧٦
- الإناقة والتجويد ٧٨
- الأسئلة ٧٩
- القراءات في نشأتها وتطورها ٨٠
- عوامل نشوء الاختلاف ٨١
- ١- بدء الخط ٨١
- ٢- الخلو عن النقط ٨١
- ٣- التجريد عن الشكل ٨٢
- ٤- إسقاط الألفات ٨٢
- ٥- تأثير اللهجة ٨٣
- ٦- تحكيم الرأي والاجتهاد ٨٣
- ٧- غلو في الأدب ٨٤
- ٨- شذوذ نفسي ٨٤
- ٩- عوامل أخرى ٨٤
- أ. زعم خطأ النسخة ٨٥
- ب. تخليط التفسير بالنص ٨٥
- ج. أهداف سياسية ٨٥

- د. نظرات كلامية ٨٦
- هـ عدم معرفة القاري بقواعد اللغة والأدب ٨٦
- أنواع اختلاف القراءات ٨٦
- الأسئلة ٨٨
- تواتر القراءات ٩٠
- أدلة عدم تواتر القراءات ٩٢
- ١ - إنكارات على القراء ٩٢
- ٢ - قراءات شاذة من السبعة ٩٣
- ٣ - تعاليل و حجج اجتهادية ٩٣
- ٤ - تناقض في القراءات ٩٤
- ٥ - عدم الملازمة بين تواتر القرآن و تواتر القراءات ٩٥
- ٦ - لا صلة بين الأحرف السبعة والقراءات السبعة ٩٨
- الأسئلة ١٠٠
- حديث الأحرف السبعة ١٠١
- أحاديث «سبعة أحرف» على أربع طوائف ١٠١
- ١ - اللهجات العربية ١٠١
- ٢ - جواز تبديل الكلمة إلى مرادفتها ١٠٢
- ٣ - البطون ١٠٢
- ٤ - تنوع الآيات إلى أبواب سبعة ١٠٣
- الأسئلة ١٠٨

- ضابط قبول القراءة..... ١٠٩
- تواتر القرآن..... ١١٠
- ملاك صحّة القراءة..... ١١٢
- ١- موافقتها مع الثبت المعروف..... ١١٢
- ٢- موافقتها مع الأفصح في اللّغة..... ١١٤
- ٣- أن لا يعارضها دليل قطعي..... ١١٥
- القراءة المختارة..... ١١٦
- الأسئلة..... ١١٨
- القراءات السبعة..... ١١٩
- حصر القراءات في السبعة..... ١١٩
- القراء السبعة..... ١٢٠
- حفص و قراءتنا الحاضرة..... ١٢٣
- الأسئلة..... ١٢٤
- الناسخ والمنسوخ..... ١٢٥
- تعريف النسخ..... ١٢٥
- حقيقة النسخ..... ١٢٦
- الفرق بين النسخ والبداء..... ١٢٧
- الفرق بين النسخ والتخصيص..... ١٢٨
- شروط النسخ في القرآن..... ١٢٨
- ١- تحقّق التنافي بين تشريعين وقعا في القرآن..... ١٢٨

- ٢- أن يكون التنافي كلياً على الإطلاق ١٢٩
- ٣- أن لا يكون الحكم السابق محدداً بأمد صريح ١٣٠
- ٤- أن يتعلق النسخ بالتشريعات ١٣٠
- ٥- التحفظ على نفس الموضوع ١٣١
- صنوف النسخ في القرآن ١٣١
- ١- نسخ الحكم والتلاوة معاً ١٣١
- ٢- نسخ التلاوة دون الحكم ١٣٢
- ٣- نسخ الحكم دون التلاوة ١٣٣
- الأسئلة ١٣٦
- المحكم والمتشابه ١٣٨
- الإحكام والتشابه ١٣٨
- عوامل التشابه وعوامل الإبهام ١٣٩
- هل في القرآن متشابه؟ ١٤١
- حقيقة التأويل ١٤٣
- هل يعلم التأويل غير الله؟ ١٤٦
- من هم الراسخون في العلم؟ ١٤٩
- الأسئلة ١٥٠
- صيانة القرآن من التحريف ١٥٢
- التحريف في اللغة ١٥٢
- التحريف في الاصطلاح ١٥٣

- ١ - تحريف مدلول الكلام ١٥٣
- ٢ - تحريف موضعي ١٥٣
- ٣ - تحريف قرائي ١٥٤
- ٤ - تحريف في لهجة التعبير ١٥٤
- ٥ - تحريف بتبديل الكلم ١٥٥
- ٦ - التحريف بالزيادة ١٥٥
- ٧ - التحريف بالنقص ١٥٦
- القرآن ولغة التحريف ١٥٧
- دلائل بطلان شبهة التحريف ١٥٨
- ١ - بديهية العقل ١٥٨
- ٢ - ضرورة تواتر القرآن ١٥٩
- ٣ - مسألة الإعجاز ١٦٠
- ٤ - آية الحفظ ١٦٣
- ٥ - نفي الباطل عنه ١٦٥
- ٦ - العرض على كتاب الله ١٦٦
- ٧ - نصوص أهل البيت عليهم السلام ١٦٨
- الأسئلة ١٧٠
- الإعجاز القرآني ١٧١
- معنى الإعجاز ١٧١
- التحدي و مراحل ١٧٥

شمول التحدي	١٧٧
أبعاد إعجاز القرآن	١٨٠
١- الإعجاز البياني	١٨٠
٢- الإعجاز العلمي	١٨٤
الإعجاز الغيبي	١٨٧
٣- الإعجاز التشريعي	١٩٠
صفات المجد في القرآن	١٩١
تقديس الأنبياء	١٩٢
شمول الدعوة	١٩٤
تشريعاته الراقية	١٩٥
أ. الفرائض والعبادات	١٩٥
ب. الأسرة	١٩٥
ج. القصاص	١٩٦
د. اليتامى	١٩٦
هـ. حق الإنسان و نفي الضرر	١٩٦
و. مسؤولية الفاعل أو المتسبب الضار	١٩٦
ز. عقوبة فاعل بعض الأفعال	١٩٧
ح. عقوبة خاصة لجرائم معينة	١٩٧
ط. الحرية و المساواة أمام القانون و احترام أفكار الأمة	١٩٧
ي. القوانين الجزائية	١٩٧

- ك. ولي الأمر في الدولة الإسلامية ١٩٧
- ل. بنو نوع الإنسان أعضاء بدن واحد ١٩٨
- أمثلة من تشريعات التوراة ١٩٩
- الأسئلة ٢٠٠
- الفهرست ٢٠٣